حقيقة الخلق
ونظرية التطور

تأليف: محمد فتح الله كولن

حَقِيقَةُ الخَلْقِ
وَنَظَرِيَّةُ التَّطَوُّرِ



المؤلف: محمد فتح الله كولن

المترجم: اورخان محمد علي

ترجمة كتاب
Yaratılış Gerçeği ve Evrim

عن التركية

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الاولى: ٢٠٠٤م

الترقيم الدولي: ١-١٥٥-٣١٥-٩٧٥ I.S.B.N

الهاتف: (٩٠٢١٦٥٢٢١١٨٨+) فاكس: (٩٠٢١٦٥٢٢١١٩٩+)

اسـتانبول / تركيـا

مطبعة جاغلايان / ازمير- تركيا

الهاتف: (٩٠٢٣٢٢٥٢٢٠٩٧+)

Baskı : Çağlayan A.Ş. İzmir

Tel : .+90.232.252 20 97

Ocak 2004

مقدمة المترجم

كانت الفلسفة في بداية نشوئها وتطورها تبحث في كل شيء وتهتم بكل شيء ومن ضمنها العلوم المختلفة. أي كانت العلوم ساحة من ساحات الاهتمام الشامل للفلسفة. نرى أن ارسطو – بجانب اهتمامه بارساء قواعد المنطق – يهتم بجميع العلوم المعروفة في عهده بدءاً من الرياضيات وانتهاءً بعلوم الأحياء. ونرى أفلاطون – استاذ أرسطو– يكتب على مدخل مدرسته: "من لا يعرف الرياضيات فلا يدخل إلى هنا".

وعندما اتسعت العلوم اتساعاً كبيراً وتشعبت، لم يعد هذا ممكناً ولم يعد في وسع أحد أن يحيط بجميع العلوم إضافة إلى اشتغاله بالفلسفة فانفصلت ساحة العلم عن ساحة الفلسفة تدريجياً.

أي أن علوم الطبيعة والنفس والرياضيات والفلك كانت فصولاً من مبحث واحد هو الفلسفة. فلما اكتمل نموها أصبحت علوماً مستقلة كما نراها اليوم.[1] وقد اشتغل أرسطو وألف في الأخلاق والسياسة والمنطق والبلاغة والفلك وعلم الحيوان. كما كان الفلاسفة المسلمون أمثال الفارابي وابن سينا من هذا النمط الموسوعي، فلم يقتصر نشاطهم في ساحة الفلسفة والمنطق بل تعداها إلى الرياضيات والفلك والموسيقى والطب واللغة.

١. قصة الفلسفة اليونانية: أحمد أمين وزكي نجيب محفوظ. صفحة ٦

ولكن العلوم والنظريات العلمية مع كونها منفصلة منذ قرون عن الفلسفة إلا أنها تعد -كما ذكرنا- أهم عامل وموجّه لجميع المدارس الفلسفية، بل سبباً في نشوء مدارس فلسفية عديدة. فمثلاً نرى أن القوانين التي اكتشفها نيوتن أثّرت في جميع فلاسفة عهده وفيمن جاء من بعدهم بقرون، حيث أصبحت صورة العالم بعد اكتشاف هذه القوانين كأنها آلة ضخمة في كون ساكن ولانهائي بثلاثة أبعاد تسير حسب قوانين محددة ومعلومة، وترسخ مبدأ "السبب – النتيجة" ترسخاً كاملاً، حتى قال بعضهم: "اعطني جميع المعلومات وأنا اسجل لك سير الكون حتى نهاية عمره".

وبعد اكتشاف "النظرية النسبية" من قبل انشتاين، و"النظرية الكمية" من قبل ماكس بلانك وهايزنبرغ وغيرهما من العلماء، اضمحلت تلك المدارس الفلسفية وظهرت مدارس فلسفية أخرى حسب المنظور الجديد لكون ذي أبعاد أربعة (بعده الرابع هو الزمان)، وتزلزل المبدأ السابق في "الحتمية Determinism" واختلفت النظرة إلى العالم في مقياسه الصغير (أي الذرة) وفي مقياسه الكبير أيضاً (أي الكون). أي أن العلم أصبح يقود الفلسفة ويوجهها. ولا عجب في هذا فما دامت الفلسفة تبحث عن الحقائق الكبرى في هذا الكون وفيما وراءه، فمن الطبيعي أن تتأثر بالنظريات العلمية التي تساهم في زيادة معرفتنا بهذا الكون وبالقوانين السائدة فيه. وقد تخطئ الفلسفة في تفسير بعض هذه القوانين عند قيامها بتفسير الكون على ضوئها، ولكن العلوم تبقى مع هذا العامل المؤثر الأول في رسم اتجاهات مختلف المدارس الفلسفية، لأن أي مدرسة من هذه المدارس لا تستطيع تجاهل المعطيات العلمية.

ومن هنا تأتي الأهمية الفائقة للنظريات وللقوانين العلمية من الناحية الفكرية والفلسفية إضافة إلى أهميتها في التقدم التكنولوجي الذي يساهم في زيادة رفاهية الإنسان وتقدمه في مضمار المدنية.

وكذلك من هنا تأتي أهمية "نظرية التطور" لدارون. ذلك لأنها أثرت تأثيراً بعيداً في جميع المناحي الفكرية للانسان... أثرت في الفلسفة، وفي علم الاجتماع وفي علم النفس وفي السياسة، وقال عنها كارل ماركس: "إن هذه النظرية هي تطبيق فلسفتنا في صراع الطبقات في الطبيعة" مشيراً بذلك إلى فكرة "الانتخاب الطبيعي" في نظرية دارون، فأثر هذه النظرية واضح في العديد من المدارس الفلسفية. فبعد انتشار هذه النظرية وذيوعها نرى أن العديد من الفلاسفة بدأوا بسحب هذه النظرية من إطارها في عالم الأحياء ليطبقوها على مستوى الكون. لذا نرى تعابير فلسفية جديدة بعد ظهور هذه النظرية وشيوعها مثل "التطور الانبثاقي Emergent Evolution للفيلسوف البريطاني "لوي مورجان" Lloy Morgan و"التطور الخلاق" للفيلسوف الفرنسي هنري برغسون.

والشيء نفسه نلاحظه عند الفيلسوف الاسترالي صمويل ألكساندر. أي هناك تطور على مستوى الكون، وأن المادة كانت في صورة بسيطة في أول أمرها ثم تطورت إلى مادة لها خواص معينة كاللون والرائحة، ثم ظهرت الحياة وبعدها العقل، وإن الله يمثل المرحلة النهائية للعقل، أي أن الله - تعالى الله علواً كبيراً - ليس إلا نتيجة هذا التطور الذي بدأ منذ الأزل في هذا الكون الذي عدوه قبل عقود من الزمن لانهائياً من ناحية الزمان والمكان. هذا عند طائفة من الفلاسفة المؤمنين بوجود الله... أما المنكرين والملحدين من الفلاسفة فقد قالوا بالمصادفة. أي أن المادة وهي تتقلب في أدوار وأطوار وحالات مختلفة أنتجت هذا النظام الرائع المشاهد في الكون وفي الحياة.

كما استندت كثير من النظريات السياسية كالنازية والفاشية إلى نظرية التطور مستخدمة إياها كسند علمي لأيدلوجياتها البعيدة عن الإنسانية، فما دامت الحياة صراعاً يبقى فيها الأقوياء ويزول من مسرحها الضعفاء لذا فمن حق العناصر القوية

(كالعنصر الجرماني في النازية وكالرجل الأبيض عند العنصريين البيض) أن تملي إرادتها على العناصر الأخرى وأن تفعل بها ما تشاء إلى حد الإبادة.

كما كانت هذه النظرية خلف ظاهرة الإباحية الأخلاقية أو ما سميت بـ"الثورة الجنسية Sexual Revolution التي اجتاحت العالم الغربي والعديد من بلدان العالم. لأن الإنسان ما دام سليل حيوانات فما عليه إلا اتباع غرائزه وعدم كبتها، وما الخُلُق والضمير إلا قشور زائفة صنعها المجتمع، وهي لا تستحق الالتفات إليها أو الاهتمام بها.

لقد شهد القرن التاسع عشر ميلاد ثلاث نظريات أثرت في الحياة الإنسانية تأثيراً خطيراً وسلبياً وهي: النظرية الماركسية ونظرية دارون في التطور ونظرية فرويد في التحليل النفسي. ولعل نظرية التطور لدارون هي أخطر هذه النظريات، لأنها حاولت البرهنة على"حيوانية الإنسان". وعندما يتم إثبات هذه الصفة الحيوانية في الإنسان ويدمغ بها فمن السهل قبول النظرية الماركسية التي ترى أن الهم الوحيد للإنسان هو حاجاته المادية وما يشبع بطنه. وكذلك يسهل قبول نظرية فرويد التي أرجعت جميع نشاطات الإنسان وغاياته إلى غريزته الجنسية.

وهناك ظاهرة تلفت النظر في موضوع نظرية التطور، لأن هذه النظرية خرجت من كونها نظرية علمية قابلة للصواب أو الخطأ إذ تحولت إلى "أيدلوجية" يدافع عنها أنصارها، ولا يترددون حتى في القيام بعمليات تزوير مشينة من الناحية العلمية والأخلاقية، وهذا ما لا نراه في النظريات العلمية الأخرى، فلا نرى عالماً في الفيزياء أو في الكيمياء أو في أي علم من العلوم يقوم بعملية تزوير لإثبات صحة نظريته أو صحة القانون الذي اكتشفه، لأن غاية العلم هي الوصول إلى الحقيقة. بينما نرى أن عمليات التزوير العلمية منحصرة في موضوع نظرية التطور فقط.

وأولى عمليات التزوير هذه قام بها العالم الألماني "ارنست هيجل ١٨٢٤-١٩١٩" وكان من أنصار نظرية التطور. ولما رأى ان صور الأجنة لا تتطابق تماماً مع هذه النظرية قام بعمليات رتوش وحذف في صور الأجنة البشرية لكي تتطابق مع نظرية "التلخيص Recapition Theory" (وهي إحدى النظريات السابقة التي قدمت كبرهان على نظرية التطور ثم نفض العلماء أيديهم عنها بعد ثبوت خطئها). ولكن أحد العلماء اكتشف عملية التزوير هذه وأعلنها في إحدى الصحف وتحدى فيها "ارنست هيجل" الذي لم ير بدّاً من الاعتراف بجريمته العلمية والأخلاقية بعد فترة صمت وتردد، فاعترف في مقالة كتبها في ١٩٠٨/١٢/١٤ وقال فيها:

(إن ما يعزّيه هو أنه لم يكن الوحيد الذي قام بعملية تزوير لإثبات صحة نظرية التطور، بل إن هناك المئات من العلماء والفلاسفة قاموا بعمليات تزوير في الصور التي توضح بنية الأحياء وعلم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة لكي تطابق نظرية التطور).

إذن فهناك مئات من عمليات التزوير -وليست عملية واحدة أو عدة عمليات- تمت في علم الأحياء وفي علم التشريح وعلم الأنسجة وعلم الأجنة قام بها العلماء من أنصار التطور.

إذن على مثل عمليات الغش والتزوير هذه قامت نظرية التطور وانتشرت، وتمت بها أيضاً عملية غسيل دماغ الجماهير في هذا الموضوع، وأصبح من لا يؤمن بها رجعياً وجاهلاً!!.

وهناك عملية تزوير مشهورة جرت في إنكلترة، وهي عملية تزوير "إنسان بلتداون Piltdown Man" بدأت في ١٩١٢، فقد صنعوا جمجمة من تركيب قحف إنسان على فك قرد اورانجتون مع إضافة أسنان إنسانية إلى الفك، وقدموا

-هذه الجمجمة على أنه الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان. وخدعت عملية التزوير هذه كبار علماء البيولوجيا وأطبّاء الأسنان الذين فحصوا هذه الجمجمة المزيفة مدة تقـــارب ٤٠ سنة، وألفت مئات وآلاف الكتب وتم تقديم رسائل دكتوراه عديدة، وكتب ما يقارب نصف مليون مقالة حولها. وفي سنة ١٩٤٩ قام "كنت اوكلي" بإجراء تجربة الفلور على هذه الجمجمة فتبين أنها ليست قديمة (اُدّعى سابقاً عمرها يبلغ نصف مليون سنة). ثم قام "كنيت اوكلي" و "سير ولفود لي كروس كلارك" من جامعة اكسفورد بإجراء تجارب أكثر دقة واستخدموا فيها أشعة اكس فتبين أن هـــذه الجمجمة زائفة تماماً ومصنوعة. وجاء في التقرير الذي نشر سنة ١٩٥٣ (إن "إنســـان بلتداون" ليس إلا قضية تزوير وخداع تمت بمهارة من قبل أناس محترفين، فالجمجمـــة تعـــود لإنسان معاصر. أما عظام الفك فهي لقرد اورانج بعمر عشر ســـنوات، والأســـنان أسنان إنسان غرست بشكل اصطناعي وركبت على عظام الفـــك. وظهر كذلك أن العظام عوملت بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم لإحداث آثار بقع للتمويه وإعطاء شكل تاريخي قديم لها).

وهناك حادثة "إنسان نبراسكا" فقد عثروا على سن واحدة ليعلنوا أن صاحب هـــذه الســـن هـــو الحلقة المفقودة التي يبحثون عنها، ونشروا صوراً خيالية لهذا الإنســـان، بـــل حتى عن حياته العائلية، وقدّم علماء التطور هذه السن كدليل في محكمـــة "ســـكوبس"[1] عام ١٩٢٥. وعندما اعترض الطرف الآخر[2] سخروا من

١. محاكمة "سكوبس" عقدت في مدينة دايتون، في ولاية "تنسي" الامريكية في صيف ١٩٢٥ وثارت حولها ضجة كبيرة حتى أن عدد الحاضرين إلى المحكمة زاد عن عشرين ألف مستمع. وخلاصة القضية أن حكومة ولاية تنسي أقامت الدعوى على أستاذ يدعى "سكوبس" لأنه عارض صحة الإصحاح الاول من سفر التكوين عن خلق الانسان، وقدّم نظرية التطور لدارون كتفسير بديل لقضية الخلق.

٢. وهم: الاستاذ "كونكلن" استاذ البيولوجيا في جامعة برنستون، والدكتور "اوسبرن" رئيس امناء متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك، والدكتور "دفنبرت" مدير دار النشوء في معهد كارنيجي بواشنطن.

جهله!! ومع أن المحكمة أصدرت قرارها بإدانة السيد "سكوبس" إلا أن الضجة التي أثارهـــا أنصار التطور في الصحافة وفي المحافل العلمية جلبت عطفاً كبيراً للمتهم، وغضباً على المحكمة.

وفي هـــذه المحكمـــة قدّم علماء التطور هذه السن كدليل لا ينقض على صحة الـــتطور، لأنهـــم اخـــترعوا من هذه السن الواحدة إنساناً أسموه "انسان نبراسكا" وأطلقوا عليه اسماً لاتينياً رناناً ليسبغوا عليه صبغة علمية.

ولكـــن تبين فيما بعد أن هذه السن لا تعود لإنسان، ولا لقرد... بل لخنـــزير بـــري!!... نعم خنـــزير!! إذن تأملوا مدى المبالغات الموجودة في تفسيرات علماء الـــتطور للمعطيات العلمية أو للمتحجرات التي يعثرون عليها، ومدى انحرافهم عن الـــنهج العـــلمي الـــذي يجب أن ينطلق من مبدأ "الموضوعية" في تفسير المعطيات والظواهـــر العلمـــية والطبيعية، بينما ينطلق هؤلاء العلماء من فكر مسبق، وهو أن نظرية التطور صحيحة. لذا يقومون بليِّ عنق هذه الظواهر والمعطيات العلمية لكي تتوافق مع ما يعتقدونه من فكر مسبق. ولا يترددون - كما رأينا- حتى من القيام بعملـــيات تزوير معيبة ومشينة أخلاقياً وعلمياً في هذا السبيل. وهناك أمثلة أخرى كثيرة في هذا الصدد لا نوردها هنا خشية الإطالة.

إذن ألا يحق لنا أن ننظر بعين الشك إلى جميع التفسيرات المقدمة من قبل علماء التطور ولجميع ما يعدونه أدلة في هذا الصدد وهم بهذه الدرجة من البعد عن الحياد العلمي؟

أجل!... لقد خرجت نظرية التطور من كونها نظرية -أو فرضية- علمية يمكن دراســـتها ووضـــعها عـــلى المحـــك مثل النظريات العلمية الأخرى، وأصبحت "أيدولوجية" عند علماء التطور يدافعون عنها حتى ولو تطلب الأمر القيام بعمليات تزوير مشينة.

ولكن لماذا أصبحت نظرية التطور أيدولوجية؟

لأنهـا الـنظرية العلمية الوحيدة التي يمكن أن تؤدي إلى الإلحاد، لكونها تدعي القـيام بتفسـير الكون والحياة دون الحاجة إلى الخالق. فإذا ظهر أن كل نوع من أنـواع الأحياء خلقت على حدة، وأن الحياة لم تظهر نتيجة مصادفات عشوائية، لأن هذا أمر مستحيل، وأن الأحياء لم تتطور عن بعضها البعض فلا يبقى هناك أي مجال أمام جميع العلماء سوى الإيمان بالله تعالى.

ولو أردنا الإشارة باختصار إلى بعض الشواهد التي تقف ضد نظرية التطور لقلنا:

١. إن كـل نظرية علمية تسعى إلى تفسير كل أو معظم الظواهر المتعلقة بها. فمثلاً عندما تضع نظرية حول الجاذبية الأرضية فيجب أن تقوم هذه النظرية بتفسير جميع الظواهر المتعلقة بها. وعندما تضع نظرية حول ماهية الضوء وخصائصها يجب ان تقـوم هذه النظرية بتفسير كل ما يتعلق بالضوء وبخصائصها. وعندما تشذ أي ظاهـرة من الظواهر عن النظريات الموضوعة لتفسيرها تتم محاولة اكتشاف نظرية أخرى أكثر شمولاً من النظرية السابقة.

إذا نظـرنا إلى نظرية التطور من هذه الزاوية نرى أنها نظرية قاصرة جداً في هذا الصدد. وندرج أدناه بعض المواضيع التي لم تقم هذه النظرية بتقديم أي تفسير لها:

أ- أصـل الحشرات: لا تقدم هذه النظرية أي تفسير لأصل الحشرات مع أنها تمثل ٨٠ % من مجموع الحيوانات.

بـ- أصل وتطور القوارض غير معروف، مع أن أعدادها هائلة وتزيد على أعداد الثدييات الأخرى.

جـ- أصل الطيران بجميع أشكاله غير معروف تماماً. فكما هو معلوم فهناك أربعة أنواع من الحيوانات:

١ – الحشرات

٢ – الطيور

٣– بعض اللبائن (كالخفاش)

٤– بعض الزواحف الطائرة (انقرضت)

لا تقدم نظرية التطور أي جواب حول سؤال: كيف ظهر الطيران عند هذه الحيوانات؟

إذن ما بالك بنظرية لا تقوم بتفسير ٩٠ % من الظواهر التي من المفروض تناولها ولا تستطيع تسليط الضوء عليها؟ وما دامت هذه النسبة الكبيرة من الظواهر غير معروفة وغير مفسرة من قبلها فكيف يمكن عدّها نظرية صحيحة؟ وهل هناك نظرية علمية أخرى غير هذه النظرية أبدت عجزها عن تفسير ٩٠ % من الظواهر التي تصدّت لتفسيرها؟ وهل يمكن أن تقبل الأوساط العلمية مثل هذه النظرية؟

٢. كيفية ظهور الحياة في الخلية الحية الأولى غير معروفة، والقول بالمصادفة ليس جواباً علمياً، بل جواباً يصادم العلم لأنه كلما زادت معلوماتنا عن الخلية الحية ومدى تعقيدها تأكدنا أكثر وأكثر مدى استحالة ظهورها مصادفة. ويكفي أن نعلم أن جزيئات D.N.A الموجودة في الإنسان تحتوي على معلومات لو قمنا بتسجيلها على الورق لاحتجنا لـ ٩٠٠ ألف صفحة تقريباً، وهذا يعادل ٣٤ ضعف المعلومات الواردة في دائرة المعارف البريطانية. فكيف يمكن إذن أن تظهر الخلية إلى الوجود مصادفة؟ وقد عُلم من تطبيق قوانين الاحتمالات الرياضية استحالة تكون جزيئة واحدة من البروتين عن طريق المصادفة خلال أضعاف عمر الكون، فكيف يمكن ظهور خلية واحدة حيّة بطريق المصادفة؟

٣. تدعي هذه النظرية أن الأحياء قد تطورت من خلية واحدة إلى أحياء ذات

خلايـــا متعددة ثم تشعّبت مساراتها في التطور حتى ظهرت الأحياء الحالية التي تبلغ أعدادها عدة ملايين. لذا فحسب هذه النظرية فلابد من وجود عشرات الحلقات الوسطى أو الحلقات الانتقالية بين كل نوعين، أي أن أعداد الحلقات الوسطى يجب أن تـــزيد بعشـــرات المرات على عدد الأحياء الموجودة حالياً. أي أن عدد أحياء الحلقـــات الوسطى يجب أن تبلغ عشرات ومئات الملايين، ولكن لم يتم العثور حتى الآن عـــلى أي حلقة وسطى. ولم يصح الزعم القائل بأن طائر "الاركيوتاتريكس" يمـــثل الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور، لأنه تم العثور على متحجرة طائر في نفـــس العهـــد الذي عاش فيه "الاركيوتاتريكس" وهو العهد الجوراسي (أو العهد الطباشـــيري) مـــن قبل البروفسور "جون ارستروم" من جامعة يالا، وكتب مقالة مفصـــلة عـــن هذا الطائر في مجلة الأطبّاء العلمية (المجلد رقم ١١٢ في ٢٤ ايلول/ ١٩٧٧). لذا لا يمكن أن يكون طائر "الاركيوتاتريكس" جداً وسلفاً للطيور بينما كانت هناك طيور حقيقة تعيش معه.

كمـــا قدّم التطوريون بعض الجماجم التي تعود لقرود -كانت تعيش سابقاً ثم انقرضت- وكأنها الحلقات المفقودة بين الإنسان والقرد. وكل هذه الجماجم مدار شك ونقاش حتى من قبل علماء التطور أنفسهم. ولو كانت نظرية التطور صحيحة لكان المفروض أن نعثر على مئات الآلاف من متحجرات الأحياء التي تمثل الحلقات الوســـطى الانتقالية بين الأنواع. لأنه تم العثور على مئات الآلاف، بل ربما الملايين من المتحجرات في المائة والخمسين سنة الأخيرة وامتلأت بها المتاحف الطبيعية.

وهـــذا الفشـــل الذريع في الحصول على هذه المتحجرات (لأنها غير موجودة أصـــلاً)، هو الذي دفع بعض علماء التطور إلى البحث عن مخرج من هذه الورطة الكـــبيرة التي تهدد بإعدام نظرية التطور، لذا قام هؤلاء (منهم ريتشارد كولد شميث Richard Gold Shmidt) بوضع نظرية (Hope Full Mons)، ووضع نظرية

Stephen Jay Gold مــنهم ســتيفن جاي كولد Punctuated Equilibrium و "نيلس الدرج Niles Eldnedge. ويحمل هذه النظريات الأخيرة هو أن التطور حصــل فجأة ودون مراحل انتقالية (مثلاً حدث أن زاحفاً وضع بيضة خرج منها طائــراً!!) و لم يســتطيعوا أن يقدموا لهذه الفرضية الخيالية البعيدة عن كل قسطاس عــلمي أي دليل يمكن أن يكون لــه وزن... وبهذا دخلت نظرية التطور في طريق مسدود.

٤. وفي السنوات الأخيرة بدأ نقاش حاد بين أنصار التطور وأنصار الخلق حول قــانون فيزيائي يرى أنصار الخلق أنه ينقض نظرية التطور من أساسها وهو القانون الثاني من "الديناميكية الحرارية".

فهــذا القانون يشير إلى أن الكون منذ خلقه يسير نحو الانحلال ونحو التدهور ونحــو المــوت الحراري، فالنجوم تبعث بطاقة حرارية وضوئية وإشعاعية ووقودها يــنفد، ونحن نرى أن كل شيء يترك لحاله ينحل ويفسد... إذا تركنا قطعة لحم أو فاكهــة نراها تفسد بعد مدة. وإذا تركت بيتاً أو سيارة لحالها دون عناية وخدمة أســرع إليها البلى... وهكذا. أي لا يوجد هناك شيء يتطور أو يتحسن حاله إذا تركته لحاله و لم تتدخل بعلمك وإرادتك في تحسين وضعه (مثلاً تستطيع القيام ببناء بــناية أو صــنع آلة، ولكن العملية هنا عملية مقصودة تدخل فيها العلم والإرادة الإنســانية، وليست عملية تلقائية). أي أن الزمن عامل هدم وليس عامل بناء، لأن الأشياء إن تركت لحالها تميل إلى الانحلال والانهدام والتفتت، ولا تتطور ولا يزداد تعقيدها أو درجة نظامها. لذا ففي مثل هذا الكون، وفي ظل هذا القانون الفيزيائي لا يمكن أن يكون هناك تطور تلقائي مستند إلى المصادفات، لأن هذا الكون متوجه للانحلال وليس للتطور.

عـــلى أي حال لا نستطيع أن نتناول هنا وفي هذه العجالة نظرية التطور بكل جوانـــبها وأبعادها، فهذا يحتاج إلى مجلدات ولكننا نقول بأننا سعدنا غاية السعادة عندما رأينا أن عالماً تركياً يتناول نظرية التطور بالشرح والتفنيد، وهذا شيء إيجابي لا نراه عند معظم فقهاء المسلمين وعلمائهم الذين تنحصر مطالعاتهم في مجال الفقه والتفســير والحديث، وقلّما يطلعون على النظريات العلمية، مع أن هذه النظريات تؤثـــر تـــأثيراً كبيراً في الفكر وفي الفلسفة وفي جميع مناحي حياة الفرد والمجتمع. وكـــلما زاد أفـــق علماء المسلمين ومطالعاتهم ووسعوا من دائرة اهتمامهم بجميع مـــناحي الحياة والمجتمع زاد تأثيرهم في الفكر وفي المجتمع وأصبحوا أكثر قدرة على الإقناع.

المترجم

اورخان محمد علي

مقدمة المؤلف

تستــــند محتويات هذا الكتيب إلى بعض مجالس السمر والحوار التي ضمت دائرة ضيقة من الأصدقاء والتي جرت في أواخر الستينات. أما عرض هذه المحتويات على الجمهور بشكل محاضرة فقد كان في السبعينات.

كانت المعلومات والوثائق والمصادر حول هذا الموضوع قليلة في تلك الأيام، بل تكـــاد أن تكون معدومة. فإذا أضفت إلى هذا قصوري الشخصي توضحت معالم هذا الكتيب.

لقـــد كـــان من رأيي ألا ينشر مثل هذا الكتيب في هذه الأيام التي نشر فيها العديـــد مـــن الكتب القيمة حول هذا الموضوع بسبب نقص هذا الكتيب وعدم كفايـــته والذي لم يكتب إلا للاستجابة لحاجة ماسة في السابق. ولكن عندما قام رفـــاقي في الفكـــر والدعوة -الذين أحترم آراءهم- بوضع هذا الكتيب الذي هو عبارة عن محاضرات سابقة أمامي بعد شذبها وتصحيحها لم أجد بدا من النـــزول على آرائهم وقبول طبعه.

هذا هو كل ما في الأمر بالنسبة لهذا الكتيب.

محمد فتح الله كولن

مدخل

للوجـــود وللحـــياة ولعالم الأحياء ولاسيما الإنسان -الذي يحتل موقعاً متميزاً فـــيه- نواح متعددة تشكل اساساً لعلوم مختلفة. وحتى لو تناولنا الإنسان وحده في هذا الموضوع رأينا ظهور علوم عديدة كالمورفولوجيا[1] والفيزيولوجيا[2] وعلم النفس وعـــلم الاجتماع والطب وعلم التربية، وعلوم أخرى عديدة. وكل علم من هذه العلـــوم اختصاص قائم بذاته وله مختصون متفرغون لـــه. ولكن لا يوجد للكون بأجمعـــه ولا للإنســـان ولا للأحياء متخصصون. لـــذا لم يكن في الإمكان حل المشكلات المتعلقة بالوجود وبالإنسان بهذه العلوم، ولا قول الشيء النهائي والأمر الفصل فيها. لذا كانت هناك حاجة ماسة لمراكز متكاملة تستطيع إنتاج معلومات وأفكـــار تفهم الإنسان وإنتاج التكنولوجيا ووضع النظريات والأفكار العامة التي تخاطـــب الشـــعور الجماعي وتكون في مستوى العصر وقادرة على احتضان جميع أمـــوره وفـــتح الآفـــاق أمامـــه. وأنا أتوقع أن العديد من الكتب ستؤلف في هذا الخصـــوص في الســـنوات القادمـــة، وستطرح العديد من الأفكار البديلة في هذا الخصـــوص، كمـــا ستشارك العديد من المراكز العلمية في هذا الأمر لتغذي وجهة النظر هذه وتثريها. وسيقوم آنذاك عدد من المفكرين ومن العلماء المحظوظين بكتابة قصـــة الوجـــود مـــن جديد، وسيكتشفون كل شيء وكل الأحياء -ولا سيما

١. مورفولوجيا Morphology: علم التشكل: فرع من علم الأحياء يبحث في شكل الحيوانات والنباتات وبنيتهما. (المترجم)

٢. فيزيولوجيا Phyisiology : علم يتناول دراسة وظائف الأعضاء. (المترجم)

الإنســـان- من جديد، ليضعوا الحقائق حول مدى سعة عالم الإنسان أمام الأنظار، وليشرحوا بشكل واضح المواضيع التي تشكل قواعد العلم وأسسه.

وعـــلاوة عـــلى هذا نستطيع اليوم أن نقول بأن المختبرات الحديثة تقوم اليوم بفحـــص الأحياء بدقة غير مسبوقة. حتى أن المادة والجزيئة والخلية أصبحت معلومة بمقياس كبير، وبدت السوائل وجميع أجزاء الخلية حتى أصغرها وأدقها معروضة أمام الأنظـــار بفضل الأشعة السينية (أشعة أكس). كما قامت بعض المختبرات الحديثة وبعـــض مراكـــز البحوث بإلقاء الضوء ليس على التركيب المادي فقط لجزيئات الـــبروتين بـــل على طبيعة الأواصر التي تربط هذه الجزيئات الكبيرة بعضها ببعض وطبـــيعة عمـــل الأنـــزيمات التي تفرق وتركب هذه الجزيئات وتأثيرها، وكذلك القوانـــين السارية في الخلايا والروابط التي تربط الأنسجة التي تشكلها هذه الخلايا مـــع الأعضـــاء الداخلية، وطبيعة السوائل في الجسم كالدم والصفراء وعلاقاتها مع بيئـــتها، وكذلـــك تأثير المواد الكيمياوية على الجسم وعلى الشعور... كل هذه الأمور أصبحت معلومة ولو نسبياً.

ولكن على الرغم من هذا التقدم الذي يستحق كل تقدير في ساحة العلم، فإن مـــن غير الممكن القول بوجود مثل هذا التقدم في ساحة العلم أو في المراكز العلمية في تركيا أو في أي ساحة أخرى منذ عهد التنظيمات حتى الآن. فبدلاً من البحث العلمي نرى تقليداً أعمى، وبدلاً من التدقيق العلمي نرى أننا في عهد من شعارات رخيصـــة مرفوعة تأخذ مكان العلم. ولا شك أن الأجيال القادمة ستذكر عهدنا هذا بكثير من الأسف. ذلك لأن الوجود قُدِّم في هذا العهد وكأنه عبارة عن وسط مـــن الفوضى، وكأن الأشياء لعبة بيد الصدف العمياء تتطوح ذات اليمين وذات الشـــمال، وكأن الأحياء لقمة بسيطة وسائغة بين الأسنان الوحشية للـــ"الانتخاب الطبـــيعي". أما الإنسان فقد هوى بمكانته وجُعل في مقعد متفرج نكد الحظ يتفرج

على حلبة الموت، وحكم عليه أن يرى ويسمع ويعيش ما يجري أمامه. بينما لو تم النظر من زاوية أخرى لكان في الإمكان مشاهدة حقيقة وجود تساند وتعاون في كل جزء من أجزاء هذا الكون، ووجود نظام وتناغم دقيق فيه، ولظهر أن كل شيء قد خطط لهدف معين، ولغاية محددة، وأن كل شيء مرتب ككتاب وكمعرض رائع وكامل يذهل العقول.

ولسنا هنا في معرض محاكمة النظرة الحالية الخاطئة ولا التحري عن أسبابها. ولكن من المفيد التأكيد على بعض الأمور: أولاً إن الوسط العلمي عندنا في عهد معين قد جُرَّ إلى وسط من الفوضى، ورُبط بمحور معين بحيث أن العديد من مراكز البحوث العلمية والمختبرات انجرّت دائماً وراء سؤال: "كيف؟" و لم يلتفت الباحثون[1] إلى أسئلة من نوع: "لماذا؟" وأنشأ نظام التعليم أجيالاً لا تفكر إلا في الإجابة على "كيف؟" ولا تفكر في الإجابة على "لماذا؟" أو "من؟". لذا فلم يظهر من هذه الأجيال أي مفكر أو عالم على المستوى العالمي طوال هذه العهود.

أجل!.. كم عالم استطعنا تنشئتهم لكي يستطيعوا اكتشاف أخطاء العلماء الغربيين؟ فمثلاً كم منهم وجد في نفسه الشجاعة لكي يوضح خطأ نظرية دارون ونقصها وجوانبها المشوهة، وأنها -مثلها مثل النظريات الأخرى- يمكن مناقشتها؟ وكم منهم استطاع تجديد فكرة أن الإنسان هو أشرف المخلوقات؟ تجديد هذه الفكرة وتطويرها... مثلاً الإشارة إلى أن الإنسان بالإضافة إلى أنه يملك أجهزة مادية كالعين والمخ والأنف والأذن وأجهزة الدورة الدموية وأجهزة الإفراغ (البول والبراز)، فهو يملك السمع والبصر والحس ووسائل اتصالات مختلفة مع الوجود، ويملك شوقاً لمعرفة ما وراء أستار هذا العالم... من أشار إلى هذا واستطاع أن يضع الإنسان في إطاره الحقيقي؟ وعلاوة على عدم إنجاز هذا فقد تم وضع العلم كصنم

١. استعملت كلمة: "الباحثون"، و لم استعمل كلمة "العالمون" عن قصد. (المترجم)

معـــبود تجاه الدين، وضُحِّي به على مذبح النظرة الأيدلوجية، فلم يستطع الخروج عن الإطار الضيق للفلسفة الوضعية للقرن التاسع عشر.

والـــذي يدعـــو إلى الأسف والأسى أنه نتيجة لكل هذا فقد أقيم علم الأحياء (البيولوجـــيا) على نظريات خيالية لم تتم البرهنة عليها، وعلى رأس هذه النظريات الخيالـــية تـــأتي نظرية التطور دون شك. صحيح أن تناول نظرية التطور والحديث والكـــتابة حولهـــا ليس من عمل شخص مثلي له مجال مختلف. ولكن حتى يجتمع مختص بالجينات ومختص بالكيمياء الحياتية (بيوكيمياء) ومختص بالبالنتولوجيا[1] وعالم ديـــني يتـــناول الموضوع من الناحية الدينية ليتناولوا كمختصين بمقياس تركيا بل بمقـــياس العـــالم كله هذا الموضوع الذي تتم مناقشته منذ مدة في المحافل العلمية، ويُظهروا الحقيقة كاملة... حتى ذلك الحين يكون من حقي ومن حق أمثالي تناول هـــذا الموضـــوع بإسم الحق. لقد أصبح الكثيرون يدافعون عن هذا الموضوع ليس باسم العلم بل باسم الأيدلوجية، حتى كاد أن يصبح مجرد مناقشته ذنبا وجريمة.

مـــن جهـــة أخرى فإننا إن وضعنا جانبا التساؤل حول وجود أو عدم وجود عـــلماء ديـــن عندنا يستطيعون تناول هذا الموضوع ومناقشته، فإن التربية والتعليم الديني عندنا لم يحقق بعد الحلم الذي ساور العديدين منذ قرن تقريبا، و لم يصل إلى المســـتوى اللائـــق و لم يشـــمل دراسة العلوم الوضعية أو في الأقل دراسة مبادئها الأساسية. وهذه حقيقة مؤسفة ومحزنة تقف عقبة أمامنا. لذا ففي مثل هذا الوضع فإن معظم المسائل التي سأتناولها هنا مع كونها خارجة عن ساحتي، إلا أنني أرى أن مـــن واجـــبي تدقيق هذه المسألة -التي أصبحت تقف مثل جدار عال حائلاً أمام الإيمـــان- على قدر طاقتي. علماً بأنني أدرك جيداً مدى صعوبة حمل هذه المسؤولية

---

١. البالنتولوجيا Paleontology: علم المتحجرات، يبحث في أشكال الحياة للأحياء من النباتات والحيوانات في العهود الجيولوجية الماضية. (المترجم)

وعظمهـــا. والحقـــيقة أن الذي قادني لهذا الأمر الذي أرجو من المختصين في هذا الموضـــوع أن يسامحوني هو بعث الهمة والعزم عند المختصين لتناول هذا الموضوع. فكـــم أتمنى أن يقوموا بحمل هذا العبء وإيضاح هذا الموضوع بكل جوانبه وبكل أعماقـــه واظهـــار الحقيقة كاملة للأجيال التي داهمت الشكوك أذهالها وأفكارها واغتيل إيمالها منذ ما يزيد على قرن كامل.

ودعـــوني أعترف فأقول بأنني كنت أفضل -بدلاً من التعامل مع هذا الموضوع وبـــذل الجهد فيه- أن أقوم بشرح الدساتير الإسلامية الأساسية التي سكنت قلبي وأثارتـــه على الدوام، وبيان الأوصاف التي يجب أن يتحلى بها الجيل الذي سينقذ الإنســـانية. لأنني أعتقد أن من الأفضل الكتابة حول الأمور الإيجابية لكونها تثير في قلـــوب المؤمنين انفعالاً أكثر. والذي يحيرني ويزيدني عجباً وأسفاً بعض التصريحات والبـــيانات التي تتناقض مع معاني العديد من الآيات القرآنية المحكمة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها حول موضوع الخلق والتي نسمعها من العديد من الناس... من المثقفين ومن غير المثقفين... من خريجي الجامعات وممن هم خارج الجامعات... بل حتى من بعض علماء الدين الذين يحاولون بتأويل بعيد إقامة صلة بين نظرية التطور لدارون وبين معاني الآيات القرآنية ومعاني الأحاديث الشريفة.

قـــبل قرن من الزمان طرح سؤال على العلامة حسين الجسر[1] -الذي أكنّ له احتراماً كبيراً- حول هذا الموضوع فأجاب:

١. العلامة حسين الجسر: هو جد المفتي الأسبق في لبنان المرحوم نديم الجسر صاحب الكتاب المشهور (قصة الإيمان). وقد تناول العلامة حسين الجسر موضوع نظرية التطوّر في كتابه المشهور (الرسالة الحميدية). وسمي كذلك لأنه ألفه وأهداه إلى السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وتناول الرد على شبهات الملحدين، وهو كتاب نفيس وحاز على اعجاب السلطان والعلماء. (المترجم)

"إن هـــذه المســـألة لا تـــزال في طور النظرية. ولكن إن تمت البرهنة عليها في المستقبل، فإننا سنقوم آنذاك بتوفيقها مع الآيات القرآنية".[1]

ومهمـــا كان احترامي كبيراً لهذا العلامة الكبير فإنني لا أستطيع أن أوافقه هنا ولا أن أوافق من يفكرون مثله. لأنه من المستحيل التوفيق بين أفكار دارون ونظرية الـــتطور مـــع الآيات القرآنية أبداً، لأن دارون يقول بأن الحياة نشأت بالمصادفات العشوائية نتيجة عدة عوامل. بينما الإحياء والإماتة فعلان خاصان بالله تعالى. وحتى لو كان في الإمكان البحث عن أسباب مادية لبدايات هذين الفعلين، فإن النتيجة – ولا سيما في موضوع نفخ الحياة– هي فوق جميع الأسباب تماماً. فنفخ الحياة إجراء مباشـــر دون حجـــاب وإلهي محض غير متعلق بأي سبب. وبما أنه لا يمكن تفسير الحـــياة بـــأي سبب مادي، لذا كان من غير الممكن أن تتجاوز الداروينية مرحلة الـــنظرية، كمـــا كان من المستحيل التأليف بينها وبين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية. وهذا هو أحد أسباب قيامي بتناول هذه النظرية.

نظرية التطور لا يمكن حصرها بـــ "دارون" ولا بـــ "لامارك". فهي من جهة أقـــدم مـــنهما وطرحـــت قبـــلهما بعدة عصور، ومن جهة أخرى فهناك أنصار لـــــ"الداروينية الحديثة" في عصرنا حيث طرحوا نظريات جديدة في تأييد وتقوية نظرية دارون. وعندما تفشل نظرية من هذه النظريات يأتون بأخرى. ومع الأسف فـــإن هذه النظريات –التي لم يتم إثباتها ولا يمكن إثباتها– تدرس في جميع المدارس المتوســـطة والـــثانوية وحتى الصفوف الأخيرة في الجامعات، وفي جميع المؤسسات التعليمـــية والتربوية والعلمية وكأنها حقائق علمية. وهنا أتمنى من المولى تعالى –وإن لم يكـــن هذا متعلقاً بموضوعنا مباشرة– أن يوفق الأجيال السعيدة القادمة لشرح

---

١. انظر: قصة الإيمان لنديم الجسر، ص ٢٠٤-٢١٥.

جميـــع جوانـــب هذا الموضوع -والمواضيع الأخرى كذلك- ولا تشغل المدارس بنظريات يستحيل البرهنة عليها.

وفي القـــرن العشـــرين تمت محاولة نقل نظرية التطور إلى المختبرات في محاولة لإثباتها بـــ "الطفرات Mutations". لذا سنقوم بتناول هذا الموضوع في إطار بحث الداروينـــية، والداروينـــية الجديـــدة، والآيات القرآنية المحكمة والأحاديث النبوية الصحيحة (على صاحبها ألف صلاة وسلام) التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها والتي تناولت مسألة الخلق.

نظرية النشوء والار ¯ ء (نظرية التطور)

نطلـــق صـــفة التطور أو التكامل على كل اتجاه من البسيط إلى المركب، ومن الفوضـــى إلى النظام. وقد تم إطلاق اسم "الداروينية" أولاً على النظرية التي كانت تبحث عن منشأ وتكوين الأحياء. ثم أطلق عليها اسم "التطور Evolotion" وهي كـــلمة لاتينـــية الأصل تعني شيئاً أو جسماً له طبقات متعددة، وتنفتح كل طبقة بشـــكل متعاقـــب الواحدة منها إثر الأخرى، وفتح أستاره للنفوذ إلى داخله. وفي الاســـتعمال اليومي لكلمة "التطور" نلاحظ أنه علاوة على ضمها لمعاني التكامل الـــتدريجي والارتقاء والنضج، فهي لا تشير فقط إلى الداروينية، بل تستعمل أيضاً للتعبير عن التغيرات الحاصلة في الأحياء نتيجة للطفرات والتغيرات والاستحالات. أي أننا نعني بالتطور جميع الأفكار والطروحات الداروينية القديمة منها والحديثة.

كان هناك في الحقيقة من طرح ادعاءات مشابهة لهذا قبل دارون، منهم "كانط" و"بـــاكون" و"هيجل" حسب رأي البعض. بل إن بعضهم أدرج مع الأسف العالم والشاعر المتصوف "إبراهيم حقي" (الوفاة ١٧٨٠م) ضمن هؤلاء. بينما ذكر هذا العـــالم المتصوف أن الإنسان يحتل الذروة بين الأحياء. وهو يعتقد أن هناك مراحل تنقـــية واصطفاء واستحالة بين المخلوقات التي خلقها الله تعالى من العناصر الأربعة (الماء والهواء والنار والتراب)، وأن المعادن هي المرحلة الأولى ثم تأتي بعدها النباتات ثم الحـــيوانات ثم الإنسان، وأن هناك بين كل مرحلتين مرحلة وسطى، وأن المرحلة الوســـطى بـــين الإنسان والحيوان هي القرود التي هي أكثر الحيوانات قرباً وشبهاً بالإنســـان. وفي الطبعة القديمة من كتابه "معرفت نامة" (ص ١٩) يتكلم عن مثل هذه المراحل التكاملية، ولكنه بعد صفحتين يدخل في موضوع الخلق المباشر مستنداً

إلى المعـــاني الظاهرة في هذا الخصوص والواردة في الآيات القرآنية وفي الأحاديث الشريفة وليس إلى أي نظرية أو أي ادعاء آخر، فيقول:

(إن الله جـــل جلالـــه انتقى آدم من الطين اللازب للأرض وهيأه -أي عمل خليطاً ومعجوناً من حساء بروتيني- ثم خلق الإنسان منه).

وقـــد يـــبدو أن هناك فرقاً بين هذين الطرحين وتناقضاً عند هذا العالم في هذا الموضـــوع، ولكن لا يوجد في الحقيقة أي فرق أو أي تناقض، ذلك لأنه كان يعني في طـــرحه الأوّل ما ذكره بعض من عاشوا قبله بعدة قرون (من أمثال ابن تركي الاصفهاني) وما ذكره بعض المتصوفة وهو التكامل الحاصل في العقل والروح. أي أن الموجودات على سطح الأرض تعرض تدرجاً من ناحية الملكات العقلية والقلبية. وهو تقييم يشترك فيه الحكماء المسلمون، وحسب هذا التقييم فهناك تنازل قوسي من السماء حتى الأرض (أي خط بياني تنازلي)، وفي الأرض هناك قوس تصاعدي يبدأ من الجماد إلى النبات والحيوان حتى ينتهي بالإنسان. أي كان من المستحيل أن يطـــرح أحـــد قبل ثلاثة قرون أو خمسة أو عشرة قرون نظرية تطورية تستند إلى الكـــروموزومات والجيـــنات والطفرات. لـــذا فإن ما جاء في ص ١٩ من كتاب إبراهيم حقي هو إشارة وتقييم للتكامل العقلي- الروحي عند الموجودات، لذا نراه عـــندما يتحدث عن عملية الخلق بعد صفحتين يشير صراحة وبوضوح إلى تفوق الإنسان وسموه ويقول:

(لقد أوجد الله تعالى من نوره جوهراً عظيماً وأنشأ منه الكون بأجمعه، وأظهره مرتباً ومتدرجاً، ويطلق على هذا الجوهر الجوهر الأولي أو النور المحمدي أو اللوح المحفوظ أو العقل الكلي أو العقل النسبي).

إن اعتـــبار مـــا قاله العالم إبراهيم حقي حول حقيقة تكامل الوجود وحول ما ذكـــره حول الروح والمادة، كل على حدة، وتصور وجود علاقة لما ذكره في هذا

الخصـــوص مع نظرية التطور البيولوجي التي طرحت بعده بعد نصف قرن من قبل لامـــارك ودارون سيؤلم روح هذا الولي الكبير. وعلى الرغم من هذه الحقيقة نرى أن بعضـــهم -غفر الله لهم- وعلى رأسهم جمال الدين سرور روانك اوغلو وضياء الدين فخري فندق اوغلو، وجواد دورصون اوغلو الأرضرومي المشهور يدعون أن هذا الولي الكبير قال بنظرية التطور البيولوجي، وكان من دعاتها وأنصارها.

وعـــلى الرغم من الآراء المختلفة -التي ذكرنا بعضا منها- فلم يكن هناك من طرح فكرة التطور البيولوجي قبل دارون أو نظرية الاستحالة (Transformation) قـــبل دارون سوى العالم الفرنسي "لامارك"، فقد نشر كتابه (فلسفة علم الحيوان) الـــذي شـــرح فيه نظريته في التطور في سنة ميلاد دارون (١٨٠٩م). واشتهر هذا الكتاب عندما بلغ دارون سن القراءة.

يمكـــن ذكر ثلاثة عوامل ساقت دارون لطرح نظريته المعروفة. الأوّل هو قيام القـــس الانكليزي "مالتوس" بنشر رسالته في إنكلترة في عهد كان فيه الفقر سائداً. كـــان مالتوس يرى أن زيادة السكان يُعدُّ عاملاً من عوامل الفقر، وكان يعارض القـــانون الحكومـــي الذي كان يقضي بقيام الحكومة بمساعدة الفقراء من خزينة الدولة. وقام بنشر كتابه (تجربة حول السكان) عام ١٧٩٨م ذكر فيه أن السكان عـــلى سطح الرض يتزايدون بنسبة هندسية، بينما لا تتزايد مصادر الغذاء إلا بنسبة عدديـــة،[١] وذلك بسبب محدودية الأراضي القابلة للزراعة، وأنه لولا وقوع أنواع عديدة من الكوارث الطبيعية كالسيول والآفات والأمراض المعدية لما كان بالإمكان توفـــير الغذاء للسكان المتزايدين. وكان "مالتوس" يدعو الحكومة -حسب فكرته

١. الزيادة الهندسية هي الزيادة كما يأتي مثلاً: س، س٢ ' س٣، س٤، س٥ ...الخ (كمثال رقمي: ٢، ٤، ٨، ١٦، ٣٢، ٦٤... إلخ) الزيادة العددية هي الزيادة كما يأتي مثلاً: س، ٢س، ٣س، ٤س، ٥س....الخ (كمثال رقمي: ٢، ٤، ٦، ٨، ١٠، ١٢....إلخ) هنا س= ٢ (المترجم)

هذه- إلى إلغاء قانون مساعدة الفقراء. أما دارون فقد استخرج من نظرية مالتوس -الـــتي قدمت لغاية اقتصادية صرفة- نتائج علمية، حيث استند إليها -كما سنرى فيما بعد- في وضع نظريته في الانتخاب الطبيعي (Natural selection).

والعـــامل المؤثر الثاني على دارون كان كتاب (حول القانون الذي ينظم ظهور الأنـــواع الجديدة) لمؤلفه "ألفريد رسل والاس" الذي كان يقوم بأبحاثه في شواطئ أمريكا الجنوبية وفي جزر ملايا في المحيط الأطلسي. وفي الرسالة الطويلة جداً -والتي كانت بمثابة كتاب- التي بعثها والاس إلى دارون أشار إلى أن المخلوقات التي تبدي تكيفاً مع بيئتها هي التي تستطيع إدامة حياتها، أي كان يشير إلى وجود صراع بين الأحـــياء في الطبيعة. وعندما طرح دارون نظريته المعروفة كان يستند إلى مثل هذه الطروحات.

والعـــامل الثالث المهم الذي أثّر على دارون كان بعض العلماء السابقين الذين تـــناولوا هذا الموضوع وذكروا حوله آراءهم مهما كانت قيمة تلك الآراء، منهم "لامـــارك" الـــذي يقـــول عـــنه السيد "عدنان آدي وار" (كان شخصاً بسيطاً وكحاطـــب ليل يجمع بعض المسائل بسرعة ودون تمحيص وبشكل لا يليق بحرمة العلم). بينما يقال أن دارون كان يجمع الآراء والأفكار من مختلف المصادر ويرتبها بشكل أكثر حيوية وأكثر قرباً من الطريقة العلمية. غير أنه سيتبين مما سنذكره فيما بعد من بعض الحقائق بأن جميع ادعاءات دارون وطريقة جمعه المعلومات وتصنيفها وتقديمها بعيدة عن الطريقة العلمية بفراسخ عديدة.

الأسس الأربعة الرئيسية التي تستند إليها الداروينية

على ضوء بعض أوجه التشابه الموجودة بين المخلوقات وفي ضوء التأثيرات التي تلقاها من العلماء قام دارون بتاسيس نظريته على هذه الأسس الأربعة الرئيسية:

تقوم الظروف الخارجية، وأحياناً التأثيرات الداخلية بإجراء تأثير على الكائنات الحية، حيث تؤدي هذه التأثيرات إلى تغييرات كبيرة أو صغيرة فيها.

تلعب هذه التغيرات بدرجة ما دوراً مفيداً للأحياء بشكل أو آخر.

تنتقل هذه التغيرات الطفيفة عن طريق الوراثة إلى الأجيال والأنسال القادمة.

الانتخاب الطبيعي: نتيجة لشحة الغذاء بسبب التزايد السكاني فإن الأحياء تضطر للتصارع فيما بينها. وحياة الأحياء عبارة عن هذا الصراع. والطرف القوي في هذا الصراع هو الذي يبقى ويستمر في الحياة، أما الضعفاء والمغلوبون فمصيرهم هو الزوال حتماً.[1] كما أن المصائب والبلايا ستبيد الضعفاء وعديمي المقاومة، فلا يبقى على وجه الأرض سوى الأنواع القوية. وتستند هذه الفكرة إلى الرأي الاقتصادي لمالتوس والذي لخصناه قبل قليل. والآن لنأخذ هذه الأسس الأربعة للداروينية ونناقشها بالتفصيل:

١. المقصود بالقوة في الأحياء –حسب نظرية التطور– ليست القوة الجسدية، بل درجة تكيف أي حي من الأحياء للظروف التي يعيش فيها ذلك الحي، فمثلاً إن البعوض أكثر الأحياء تكيفاً وتلاؤماً لبيئة المستنقعات من العديد من الأحياء الأقوى منها. (المترجم)

- **دعوى التطور، والتشابه الموجود بين الأحياء**

تـــنطلق الداروينية من المشابهة والتشابه الموجود في الطبيعة. فهي ترى أن بعض الأعضـــاء الضـــامرة الموجودة في بعض الأحياء الراقية هي آثار عن أسلاف بدائية كانت مفيدة لها، ولكنها أصبحت دون فائدة بعد قطع هذه الأحياء لمراحل تطورية معيـــنة، ولكـــون هذه الأعضاء لا تفيد في هذه المرحلة الجديدة من التطور لذلك الكـــائن لذا بقيت كأعضاء ضامرة وأثرية. فمثلاً يقول دارون إن وجود الشعر في جســـم الإنســـان دلـــيل على أنه ورث هذا الشعر من الشعر الموجود في أجساد الثدييات، وفي أثناء المراحل التطورية التي مر منها الإنسان تساقط القسم الأكبر من هذا الشعر و لم يبق إلا في مناطق معينة... فلماذا؟

مـــثل هـــذه الادعاءات لدارون لا تستند إلى برهان حقيقي. لأن وجود الوجه والعين والأذن في الإنسان لا يشكل دليلاً على أنه تطور من القرد. كما لا يشكل وجود هذه الأعضاء في بعض الأحياء دليلاً على أن بعضها قد تطور من بعض. لأن هناك تشابهاً كثيراً بين العديد من الكائنات الحية في العالم. لأن جميع هذه الكائنات الحـــية تســـتند إلى عناصر رئيسية أربعة هي: النتروجين، الكاربون، الأوكسجين، والهيدروجين. كما أن الإنسان والحيوان يتغذون أغذية مشتركة. والإنسان خاصة يـــتغذى من الأغذية نفسها، ومع ذلك فإن جميع أنواع الموجودات، وكذلك أفراد الإنسان يبدون في نواح عديدة فروقاً كبيرة فيما بينهم.

إن التشـــابه في المظهـــر الخـــارجي أو في البنية الداخلية لا توجب تطور الأحياء بعضـــها مـــن بعـــض. وعلى الرغم من النشأة المشتركة، فإن الفروق الموجودة بين الكائنات تُظهر أن الغاية من الخلق ووظيفة ذلك الكائن وموقعه يأتي في المقدمة، وأن البنـــية الماديـــة تنظم على هذا الأساس. فلا يمكن بناء بناية عشوائية أو بناية جميلة ثم

تعطـــى لها فيما بعد وظيفة ما. ولا يمكن تشكل الكلمات في الذهن أو كتابة كتاب قـــبل وجود فكرة أو معنى في الذهن. يتكون كل بناء تقريباً من المواد البنائية نفسها. لذا فهناك تشابه كبير بين الأبنية، ولكن أي بناية ليست مثل بناية أخرى تماماً.

إن الأحـــرف التي تشكل الكلمات واللغات هي نفسها، ولكن كل كلام يتم التعبير عنه بتلك الإشارات والأحرف المحدودة في أعدادها. ولو كانت هناك كلمة من سبعة أحرف فإنها تختلف تماماً مع كلمات أخرى تتشابه معها في ستة أحرف، لأن اختلاف حرف واحد يبدل المعنى ويجعلها مختلفة عن الكلمات الأخرى. كما أن هـــناك احتمال وجود سبع كلمات مختلفات لها سبعة أحرف... ووجود ستة أحـــرف مشتركة بين هذه الكلمات لا يدل على أنها مشتقة من جذر واحد. لأن المعـــنى هـــو الذي يحدد ماهية كل كلمة ويحدد حروفها. ونظير هذا فإن الوظائف المتشـــابهة تقتضي عند الكائنات أعضاء وتراكيب متشابهة. وعلى الرغم من وجود بعض الشبه في عالم الأحياء، وعلى الرغم من استعمال مواد البناء واللبنات نفسها نرى وجود اختلافات لانهائية فيه.

ولـــو قمنا بالتعبير عن الأمر بصورة عكسية لقلنا بأن تشابه مواد البناء واللبنات الأساســـية في الأحـــياء على الرغم من وجود اختلافات لا نهائية يدل على وجود قصـــد وإرادة ومعنى معين. لذا فكما تتراص الكلمات حسب معنى معين، كذلك تُخلـــق الأحياء حسب الوظائف التي ستكلف بها، وتعطى لها الأعضاء والتراكيب المناسبة. لذا فالتشابه الموجود بين الأحياء لا يشير إلى التطور، بل يشير إلى العكس.

ثانياً إن هناك أعداداً غير محدودة من الكائنات ومئات الآلاف من الأنواع على سطح الأرض[1] ولو كان لكل نوع وجه خاص وأعضاء مختلفة، ولو كان لكل نوع

١. لم يكمل بعد الفرز النهائي للأحياء، ولكن ما تم منه حتى الآن يظهر أن عدد أنواع النباتات والحيوانات بلغ عدة ملايين. (المترجم)

بنـــية مختلفة وجسد مختلف لكان من الضروري وجود أنواع لانهائية من الأعضاء ومن التراكيب والبنى. ولو تناولنا الأمر على مستوى الإنسان لكان من الضروري أن يكـــون لكل فرد تركيب وبنية مختلفة وشكل مختلف لأن الإنسان يشكل نوعاً فريداً في عالم الكائنات. ولا شك أن الله تعالى له القدرة على إعطاء شكل مختلف وبنـــية مخـــتلفة لكـــل نوع. ولكن كان من الصعب في هذه الحالة تحقق التقارب والتفاهم والتعاون في عالم الأحياء وفي عالم الإنسان، ولأصبح كل نوع غريباً عن الأنواع الأخرى... أي لكان هناك عالم لا يطاق فيه العيش.

ثم إن كـــل شيء مشابه أو كل شيئين متشابهين ليس معناه العينية. فمثلاً هناك أنـــواع عديدة من السوائل، ولكن ماء الورد يختلف عن حامض الهيدروكلوريك، وحتى في الاستعمال نرى أن أحدهما يجلب الراحة، والآخر يحرق. وكذلك نرى أن الشمس والكهرباء والشمعة والخشب المحترق يعطي كل منه الضوء، ولكن لا يمكن إرجـــاع الجمـــيع إلى مصدر واحد. لذا فوجود عضو واحد في الإنسان، أو عدة أعضاء مشابهة لما هو موجود في الحيوانات، بل حتى وجود أوجه تشابه عديدة بين الإنســـان وبين الحيوان لا يشير ولا يبرهن على وجود تطور بين النوعين. لأن كل موجود قد أعطيت له الأعضاء المناسبة لتحقيق وظيفته في الحياة. علماً بأنه قد تبين اليوم بأن العديد من الأعضاء -التي عدت في السابق أعضاء ضامرة ولا فائدة منها ولا وظيفة لها- لها وظائف مهمة.

بجانـــب هـــذا فقد تكون هناك في الطبيعة أشياء تبدو وكأنها غير مناسبة للبيئة ولبنية البيئة العامة وتركيبها، بل هي موجودة فعلاً. ولكن يمكن البحث عن المعاني التي تشير إليها من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لا نعرف بعد طبيعة بنية البيئة حتى المعـــرفة، ولم نحل جميع ألغازها. أحياناً يوضع شيء في مكان غير مناسب، كعنصر مـــن عناصـــر الديكور والجمال فيجلب الأنظار إليه. فإن أثار هذا الاهتمام، وقام

الإنســـان -اســـتنادا إلى هذا- بإصدار حكم حول البنية العامة فإنه ينخدع تماماً. وهذه النقطة نقطة امتحان زلّت فيها كثير من الأقدام.

فإن كان هناك قصر له ألف باب اثنان منه مغلقان، فمن الخطأ الحكم بأن جميع أبـــواب ذلك القصر مغلقة. وكذلك لو كانت هناك شجرة لها جذور حية وقوية وجذع متين وأغصان وأوراق وثمار في تمام العافية والنضج، فإن من الخطأ الفاحش القـــول بأن هذه الشجرة شجرة ميتة وغير صالحة لمجرد وجود ثمرتين عفنتين على غصـــن منها. كذلك فإن التوصل إلى استنتاج بوجود تطور بين الأنواع من مجرد وجـــود عضو أو عضوين ضامرين، (وبالتالي الظن بأنهما غير مفيدين) خطأ بنفس الدرجة وتصرف غير علمي.

لقد زعم دارون -انطلاقاً من وجود التشابه- إلى أن وجود بعض الأمراض التي تصـــيب الإنسان تصيب الحيوانات أيضاً مما يشكل حسب رأيه دليلاً آخر في هذا الصـــدد (أي في وجود قرابة بين الإنسان والحيوان). ولا يسعنا هنا سوى ذكر ما سبق أن ذكرناه في هذا الأمر.

فالأمراض المكتشفة تبلغ العشرات، بل المئات إن أخذنا بنظر الاعتبار الأمراض الـــثانوية المتشـــعبة عـــن الرئيسية. ولو كانت هناك أمراض متعددة لكل نوع من الأنـــواع لكـــان من المفروض وجود عدد لا يعد ولا يحصى من الأمراض. ثم إن وجود أمراض مشتركة بين الإنسان والحيوان شيء طبيعي جداً ومتوقع طالما أن بنية الإنسان والحيوان مؤلفة في الأغلب من لبنات متشابهة وتؤدي مهمات متشابهة، لذا فلا يشكل هذا الأمر دليلاً له أي قيمة في أن الإنسان متطور من الحيوان. علما بأن معظـــم الأمراض التي تصيب الإنسان ليست هي نفس الأمراض تماماً التي تصيب القرود. على العكس من هذا تماماً فبعض هذه الأمراض تظهر في أنواع أخرى من الحـــيوانات، فمثلاً يظهر مرض (amfizem) المزمن عند الخيول، ومرض سرطان

الـــدم في القطـــط والثيران، ومرض العضلات (ditrofisi) في الدجاج والفئران، وتصـــلب الشرايين في الخنازير والحمام، ومرض سوء التخثر ومرض التهاب الكلية في الكـــلاب، ومـــرض قرحة المعدة في الخنازير، ومرض (anevrizma) في الديك الـــرومي، وحصـــاة الصـــفراء في الأرانب، والتهاب الكبد في الكلاب والخيول، وحصاة الكلية في الكلاب والثيران، ويظهر مرض السُّد (إعتام العين ca t) في الكلاب والفئران. وفي الطيور والدجاج أيضا.

فهـــل نستطيع انطلاقاً من هذا الادعاء بأن أصل الإنسان فأر، أو انه تطور من الكـــلاب؟ أو أنـــه ترقى من الثيران؟ إن من الطبيعي أن يصيب الإنسان والحيوان النوع نفسه من الفيروس والبكتريا، ولا يدل هذا على كون منشأ الإنسان والحيوان واحـــداً. وهناك أمراض تصيب الإنسان كما تصيب الطيور والدجاج التي تعد من الناحـــية البيولوجـــية بعيدة جداً عن الإنسان. فإن أرجعنا الإنسان -بواسطة هذه الأمراض- إلى الدجاج فسيكون هذا ابتعاداً عن النظرة الداروينية. لأن دارون ربط الموضوع بالتطور ووضع القرد بين أنواع الحيوان والإنسان.

• التكيف ومسألة الأعضاء المستعملة وغير المستعملة

بعد أن أوضحنا بأن مسألة التشابه -التي هي من منطلقات دارون- لا يمكن أن تكـــون أساســـاً للتطور، علينا أن نبين بأن أساساً آخر من أسس الداروينية وهو زعمهـــم بأن الأعضاء غير المستعملة ستضمر بمرور الزمن، وأن الصفات المكتسبة فيما بعد عند الأحياء تنتقل إلى ذرياتها وأنسالها حسب نظرية لامارك... فلقد تبين بـــان هذا الزعم لا يملك أي مصداقية. صحيح أننا نرى أن بعض الأعضاء ولاسيما العضـــلات عندما تستعمل كثيراً تتضخم. ورافع الأثقال تتضخم عضلات ساعده وتـــنمو بشكل جيد. ولكن ابن حامل الأثقال لا يأتي إلى الدنيا بعضلات ضخمة.

ولكي يملك مثل هذه العضلات عليه أن يتمرن على رفع الأثقال. ونظير هذا المثال نجـــد أن الـــيهود يُختنون منذ أربعة آلاف سنة. وعلى الرغم من مضي كل هذه السنوات الطويلة فلا يولد طفل يهودي وهو مختون. كما أن المسلمين يُختنون منذ ١٤ قرناً، ومع هذا لم نر من ولد مختوناً. لذا فإن قبول انتقال الصفات التي يكتسبها جيل من الأحياء إلى ذرياتها عن طريق الوراثة، واعتبار هذا الأمر قضية مسلم بها لا يتلاءم مع العلم ولا مع الكرامة العلمية.

ومثـــيل هذا خرافة أخرى وهي أن الأعضاء غير المستعملة تضمر بمضي الوقت، وتنتقل ضامرة إلى الأجيال القادمة، أما الأعضاء المستعملة فتقوى وتتطور. وقد ادعى "لامارك" بأن عنق الزرافة أصبحت طويلة أكثر من الاعتيادي، لأنها كانت تضطر لمد أعناقها لأكل أوراق الأشجار العالية، وأنها شعرت بضرورة كون أعناقها طويلة. فأي حـــيوان لا يرغب في أكل الأوراق الموجودة في أعلى أغصان الأشجار؟ ولماذا طال عـــنق الزرافة و لم تطل أعناق الحيوانات الأخرى؟ من المعروف أن العنـــز تتغذى من أغصـــان الأشجار وأوراقها على الدوام إلى درجة أنها تعد من أعداء الغابات. ولكن لكون أعناقها لم تطل فهي مضطرة على الدوام لبذل جهد كبير لتسلق الأشجار. ألم تكـــن الـــثعابين ترغب أن تكون لها أرجل تمشي عليها بدلاً من صعوبة الزحف بين الأتـــربة والصـــخور؟ ويدعي داروين أن أرجل الثعابين ضمرت بمرور الوقت. وهنا يوجـــد تـــناقض واضح لكل عين. فلو كان هناك تطور في عالم الأحياء لكان من المفـــروض أن تتطور الثعابين من أحياء كالدود إلى أحياء تملك أرجلاً طويلة متكاملة ومـــتطورة. فمن جهة يقولون بأن الثعابين كانت تستعمل أرجلها في عهد من العهود ، ثم لم تعد تستعمل هذه الأرجل فضمرت. بينما لو كانت الثعابين قد ظهرت وهي تملـــك أرجلاً -كالخيول مثلاً- لاستعملت هذه الأرجل طبعاً. إذن لماذا لم تستعمل هـــذه الأرجـــل وانقلبـــت إلى زاحف؟!. فمن جهة يدّعون بأن الثعابين لم تستعمل

أرجـــلها ممـــا أدى إلى ضمورها، ومن جهة أخرى يدعون أن أعناقها طالت بسبب اضطرارها إلى الزحف الدائم. أليس في هذا تناقض واضح؟

ويـــزعم دارون كذلك أن الطير اكتسب فيما بعد جناحيه لكي يستعملهما في الطيران. وهنا يوجد تناقض واضح في هذا الزعم. لأنه كان من المفروض -حسب الادعـــاء بـــأن الأعضـــاء المستعملة تتكامل وتتطور، وأن الأعضاء غير المستعملة تضـــمر- أن تضـــمر جـــناحا الطائر، لأن الطائر لم يستعملهما طوال فترة عدم صلاحيتهما للطيران. لذا كان من المفروض أن تضمر الجناحان وتنعدمان أو تقربان مـــن الانعدام والاختفاء... كما أن مثل هذا الزعم يجلب معه أسئلة كثيرة. فكيف تكـــامل هـــذا الطائـــر تدريجياً قبل أن يملك جناحين صالحين للطيران، ثم امتلك الجـــناحين فجأة؟ وكيف شعر الطائر بضرورة امتلاكه للجناح؟ وكيف قام بتطوير جناحـــيه؟. فهل كان يتدرب على امتلاك الجناح بعد شعوره بحاجته له فظهر هذا الجناح فجأة؟ وقبل أن يمتلك الطير الجناح أكان يتحول مع الحيوانات الأخرى؟ أم كـــان له عضو حافظ عليه وكان يستخدمه سابقاً وتحول هذا العضو إلى جناح؟. فكيف حافظ على هذا العضو وبأي عامل؟ لا يملك دارون ولا الذين تبنوا نظريته بكل تعصب -وكأنها حقيقة لا شك فيها- أجوبة مقنعة حول هذه الأسئلة.

نرى أن الذين يصرون على التمسك بنظرية التطور، أي يصرون على فكرة أن الأعضـــاء غير المستعملة تضمر وأنها تنتقل بالوراثة إلى الأجيال اللاحقة، يقدمون مـــثال اللوزتين والزائدة الدودية عند الإنسان دليلاً في هذا الموضوع. فأنصار هذه الـــنظرية يقولـــون بأن الزائدة الدودية التي تقع بين الأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة عضـــو ضامر ورثناه من أسلافنا من الحيوانات آكلة العشب، لذا فلا ضرورة ولا فـــائدة له. ولكـــن العلم يقول اليوم أن اللوزتين عبارة عن بوابة حراسة وأمن ضد الجراثـــيم الـــتي تحاول دخول جسم الإنسان عن طريق الفم. ويصف البروفيسور

"عــثمان بــارلاس" في كتابه "الطب السريري وتشخيص المرض" الزائدة الدودية بأنها: "المعدة الثانية للإنسان". وغنى هذا العضو باللمف والأوعية الشعرية يشير إلى أهميــتها. ويحــتمل أننا سنملك في المستقبل معلومات أكثر تفصيلاً حول الزائدة الدودية. ولكن ما عرضناه حولها يكفي لبيان تهافت هذا الزعم.

ويذكــر دارون أن الشعر الموجود في الإنسان ضامر أيضاً، حيث يقول: "لقد كــان أجــداد الإنسان حيوانات ذات شعر كثيف، وأنه عندما تطور وتحول إلى إنســان سقط الكثير من شعره". ولكن عندما جاء ليفسر سبب عدم وجود الشعر عــند النساء في أكثر أجزاء أجسامهن اعتذر بعذر لا يتلاءم ولا ينسجم مع نظرية الــتطور فقــال: "لقد كان هذا ضرورياً لجمال المرأة وجاذبيتها!!" لقد كان من الممكن أن يكون إيراد هذا السبب مفهوماً لو تم النظر للموضوع من زاوية الحكمة ومن زاوية الخلق الالهي.

ولكـــن الأمر ليس كذلك مع نظرية ترى أن هذا الوجود -الذي يستند فيه كل شـــيء وفي كـــل جانـــب من جوانبه، وفي كل جزيئة من جزيئاته وكل حركة من حـــركاته إلى شـــعور كلي، وإلى علم وقدرة وإرادة مطلقة وأثر من آثارها- وهذا الكون وما فيه من حياة تستند إلى المادة الصماء الخالية من أي شعور أو علم أو إرادة أو حكمة، وإلى الطبيعة وإلى المصادفات العشوائية. أي أن قيام هذه النظرية في صدد إيضـــاح عـــدم وجود الشعر الموجود في الرجال في أجساد النساء إلى الحكمة وإلى سبب شعوري يعد هروباً وتناقضاً صارخاً. بل هو عجز عن الهروب من الحقيقة.

ويحـــاول دارون تفسير وجود الشعر في رؤوس الرجال وعدم تساقطه فيقول: "بمـــا أن الـــرأس معرض كثيراً للضربات فقد كان من الضروري أن يبقى الشعر علـــيه". ولكن أيتعرض أنف الإنسان وجبينه بل وركبته ورجله إلى صدمات أقل، لذا تساقط الشعر هنا و لم يبق فيها إلا الشيء القليل منه بينما بقي في الرأس؟!

ويقدم الداروينيون الجدد الدليل الآتي للبرهنة على التغيرات الحاصلة في الكائن الحي للتكيف مع البيئة: يقولون بأنه جرى في بعض الأماكن الصناعية في أوروبا ما يطلق عليه اسم "قتامة التصنيع"، فقد لوحظ في هذه الأماكن أن الفراشات السوداء وذات الألوان الغامقة تستطيع صيانة أنفسها عن أعدائها عندما تحط فوق الجدران الغامقة والسوداء، أكثر من الفراشات ذات الألوان الفاتحة، وتتكاثر أكثر منها. إذن فهناك عملية تغيّر، حيث سيأتي يوم تنقرض فيه الفراشات ذات الألوان الفاتحة انقراضاً تاماً بينما تبقى الفراشات ذات الألوان القاتمة.

من الواضح أن هذا الدليل دليل متهافت تماماً. لأن الفراشات التي انقرضت والفراشات التي بقيت هي فراشات، فكما لم يحصل أي تطور من نوع إلى نوع آخر، كذلك لم يحصل أي تغير داخل النوع نفسه.

كما يقدمون حدوث التغيرات ضمن النوع الواحد من الأحياء -إما نتيجة حادثة طبيعية أو نتيجة عزل صناعي، أي نتيجة العيش في ظروف مختلفة- كدليل على التطور على أساس من التكيف للبيئة. من الممكن مشاهدة مثل هذه التغيرات في كل وقت، ولكنها تغيرات ظاهرية وتجري ضمن النوع الواحد. ولا يمكن إيراد هذه التغيرات كدليل على سلسلة عملية التكامل والتطور التي تؤدي لظهور أنواع جديدة من الأحياء. ولو تم مثل هذا الادعاء لما كان مقنعاً أبداً.

- **التطور والمراحل التي يمر منها الجنين في رحم الأم**

هناك ادعاء آخر في هذا الموضوع، وهو أن الجنين عندما يمر بمراحل النمو في رحم الأم يكون مشابهاً للمراحل الأولى لنمو الأجنة الأخرى للحيوانات الفقرية الأخرى. ولا يوجد لهذا الادعاء أي جانب مقنع. وقد قام البرفيسور "شنكون" بنقد هذا الادعاء ويقول بأننا لا نعرف الشيء الكثير عن مدى التناظر والتشابه

الموجـــود في مراحل نمو وتطور البويضة المخصبة. علماً بأنه ليس من السهل معرفة وملاحظـــة التـــناظر والتشابه، لأن بعض الأجنة تنمو وتتطور بسرعة، بينما تكون أجـــنة أخرى بطيئة النمو والتطور. ومع وجود تشابه مورفولوجي[1] -أي شكلي- فـــإن نســـل كل كائن حي يملك خواصاً وكروموزومات وجينات واستعدادات ومسار نمو وتطور خاص به.

يعطي القرآن معلومات حول مراحل تطور الجنين، وهي معلومات أيدها العلم بعد ١٤ عصرا من نزوله. لذا سنتناول التطور في ظل الآيات القرآنية.

﴿وَلَقَـــدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُـــمَّ خَلَقْـــنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَـــامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ (المؤمنون: ١٥).

تذكر الآية هنا أن العناصر الموجودة في التراب هي المنشأ المادي للإنسان. وقد يكون هذا الذكر رمزاً أو تشبيهاً، والمقصود منه قد يكون الأغذية التي تدخل هذه العناصر فيها والتي تكوّن سائلاً أو حساءً من البروتينات. وكلا المعنيين صحيحان. ثم يدخل هذا السائل إلى رحم الأم كنطفة حيث تبدأ بتعقب مراحل أخرى مختلفة. فيجعـــلها الله تعالى أولاً علقة، أي قطعة دم متخثرة ملتصقة بجدار الرحم. وكلمة "علقة" في اللغة العربية لها ارتباط بكلمة "علاقة" الموجودة في اللغة التركية. أي أن شـــكل العلقـــة الـــذي تأخذها العلقة الملتصقة بجدار الرحم تكون لها علاقة بالأم وبجســـدها وتتغذى منه. وينسب القرآن كل هذه التطورات بالله تعالى. لأنه ليس باســـتطاعة تلك النطفة ولا تلك العلقة القيام بنفسها بأي عمل، ولا تملك أي حظ

١. المورفولوجيا: فرع من علم الأحياء (البيولوجيا) يبحث في في شكل الأحياء من النباتات والحيوانات وبنيتها. (المترجم)

للـــنجاح في إنجـــاز أي عمل من الأعمال التي تستوجبها وتيرة التحول إلى إنسان كامل مهما كان صغيراً، والتي تقتضي شعوراً وإرادة وعلماً وقدرة لانهائية. لذا فالله تعالى هو الذي يقدر هذه الأفعال وينجزها.

وعـــندما نقوم بشرح المراحل المختلفة التي يمر بها الجنين في رحم الأم نستعمل عـــبارات يبدو من ظاهرها وكأن هذه المراحل تتم تلقائياً. بينما لا نعني هذا بل هو أســـلوب مجازي فقط. بينما تقوم نظرية التطور بالادعاء بأن جميع هذه المراحل تتم تلقائياً وعن طريق المصادفات العشوائية، فتعرض بذلك جهلاً وإنكاراً غير مسبوقين في الـــتاريخ. وهـــذا هو السبب كما أعتقد في هذه الأهمية البالغة التي يوليها العلم المادي لهذه النظرية.

إن العلقـــة التي تلتصق بجدار رحم الأم تدخل في علاقة قوية وجذرية مع الأم ومـــع جسدها. ثم تتحول إلى "مضغة"، وهي تعني شيئاً مثل قطعة لحم ممضوغة في الفـــم لا شكل لها. ثم لا تلبث أن تتحول بعض الخلايا الموجودة فيها -التي تكوّن هـــذه المضغة التي لها شكل اللحم الممضوغ- إلى غضروف أولاً ثم تتحول تدريجياً إلى عظم. وبعد تشكل هذه الخلايا يتم تشكل خلايا العضلات والأنسجة الرابطة، حيـــث يقوم اللحم المتشكل منها بتكسية العظم. ولم تتوضح تفاصيل هذه المراحل في عـــلم الأجـــنة الحديث إلا بعد تيسر رؤية بطن الأم بأشعة أكس، بينما شرح القـــرآن هذه المراحل قبل ١٤ قرنا بشكل واضح. علماً بأن الغاية الرئيسية للقرآن هي عرض الحقائق الأساسية كالتوحيد والنبوة والحشر والعبادة والعدالة، وإيضاحها والبرهنة عليها.

لـــذا فإن القرآن عندما يتعرض لبعض الحقائق العلمية عرضاً يستعمل أسلوب التشـــبيه والاســـتعارة والمجاز والمثال. ولكن قيام القرآن بعرض المراحل التي يمر بها الجـــنين في رحم الأم بكل هذا الوضوح والصراحة لا بد وأنه كان ضرورياً لإزالة

-الشكوك التي تثار في المستقبل، ولإيضاح مدى خطأ ما ستطرح من نظريات - كنظرية التطور- فجاء هذا التنبيه والتفصيل من قبل ١٤ قرناً لهذا الغرض.

وبعد أن يشرح القرآن خلق العظام ثم إكساءه اللحم يقول: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾. وتبين من هذه الآية أن الإنسان خَلْقٌ مستقل بذاته، وهذه المرحلة هي بداية هذا الخلق الخاص.

ضمن هذه المراحل الخمس، أي مرحلة النطفة ثم العلقة، ثم المضغة ثم مرحلة خلق العظام، ثم مرحلة إكساء العظام لحماً، تبدو جميع الأحياء الفقرية متشابهة تماماً. فلو شاهدنا جنين طائر أو سمكة أو جنين إنسان في طور من أطوار هذه المراحل الخمس لما رأينا أي فرق يذكر بين هذه الأجنة. ولكن هذا التشابه الذي يبدو تاماً، تشابه ظاهري فقط. لأن مدة هذه المراحل مختلفة فيما بينها، فبعضها قصيرة جداً وبعضها طويلة.

ثانياً إن كل جنين يملك خواصاً تعود لنوعه، ويتميز بها، ولا نستطيع مشاهدة هذه الخواص من الخارج، لا بل لا نستطيع مشاهدتها حتى لو دخلنا بطن أمه، وهو ينمو ويتطور حسب هذه الخواص، إلى درجة أن كلَّ إنسان يختلف عن الآخرين إلى درجة ما، لأنه يظهر في النهاية فرد يختلف عن الآخرين من نواح عديدة: يختلف بشعره وعينيه وأنفه وشفتيه وقامته ووزنه وبصمات أصابعه وجزيئات D.N.A. عنده، ومظهره وتصرفاته وقابلياته. ولكن توجد بين أجنة النوع النوع الواحد صفات مشتركة تعود لذالك النوع. فمثلاً نرى أن الإنسان لكونه خُلق في أحسن تقويم، أي في أفضل شكل وجهِّز بالعقل والمشاعر والإرادة، فإنه ما أن يأتي إلى الدنيا حتى يظهر الاستعداد للتعلم، وكذلك للترقي والسمو بالإيمان وبالعبادة. ولكونه يملك سر هذا الاستعداد، فإن كل جنين إنساني مجهز بهذه القابليات لتحقيق الأمور والأهداف التي ذكرناها.

ومع هذا فلكل جنين بشري خواصه المتميزة، لأن كل فرد من الأفراد في النوع الإنساني يملك خواصه التي يتميز بها. وهذه الصفات والخواص التي يملكها ذلك الكائن الحي وتميزه عن الكائنات الحية الأخرى هو البرنامج الموجود في جزيئات D.N.A والكامن في جيناته الموجودة في كروموزومات ذلك الكائن. ومع هذا فلا يبدو في الظاهر أي فروق تشير إلى هذه المميزات والخواص في أجنة الأحياء الفقرية في المراحل الخمسة الأولى، ولا يمكن ملاحظة أي فروق. أي تبدو وكأنها مثل الأجنة الأخرى تماماً.

ولنفرض أن أجنة الأحياء الفقرية كالطير والسمك والإنسان متطابقة بعضها مع البعض الآخر تماماً، فكيف يستطيع العلم أو أنصار نظرية التطور تفسير التغيرات الكبيرة التي ستظهر فجأة بعد هذه المراحل؟ إن الأحاديث النبوية الشريفة تذكر بأن الروح ينفخ في هذه المرحلة في الإنسان ويُكتب قدره. ولكن بما أن نظرية التطور والعلم المادي لا يعترفان بالروح ولا بالقدر فكيف يستطيعان تفسير هذه التغيرات والتمايزات الفجائية، وكيف يفسران أن كل فرد إنساني يكون متميزاً عن الأفراد الآخرين، ويتجه لكي يكون ذا كيان مستقل ومتميز؟

فإن كانت عملية التغير هذه والتمايز عند الإنسان نابعاً عن روحه الذي يعطيه هويته الحقيقية وعن قدره، أي عن الخصائص المعنوية التي تعطي له ماهيته وكيانه، فإن على التطوريين وعلى أرباب العلم أن يفحصوا كل موضوع وكل مسألة من البداية، ويفكروا فيها من جديد، أليس كذلك؟ ومع هذا فإننا نؤمن -على الرغم من الادعاء المعاكس للتطوريين- بأن لأجنة كل نوع من أنواع الأحياء، ولكل فرد من أفراد النوع الإنساني فروقاً خاصة به، وخواصاً نابعة من روحه ومن قدره.

بعد المرحلة الخامسة من النمو يبدأ الجنين الإنساني بأخذ شكل إنساني، ويبدأ كل فرد بحمل الخواص المميزة له. وهذه المرحلة هي مرحلة اكتساب صفة وسر

"أحســـن تقويم". وهنا تظهر أعلى درجة من درجات صفة الخلق لله تعالى في خلق الإنسان، أو أعلى مرتبة من مراتب الخلق، وهو ما تلخصه وتشير إليه الآية الكريمة ﴿فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾. لذا نستطيع القول بإيجاز بأنه لكون الخالق جل شـأنه يتجـلى باسمه الأعظم في خلق الإنسان فإنه -أي الإنسان- مجهز بالاسم الأعظم من أسماء الله الحسنى، فأصبح مظهراً لأن يتبوأ مرتبة "أحسن تقويم". أي إنه مخلوق متميز وفريد.

والخلاصـة فـإن أجنة الحيوانات الفقرية تكون متشابهة فيما بينها في المراحل الأولى، كمـا أن مشابهة الجنين الإنساني لأجنة الحيوانات الفقرية الأخرى مشابهة ظاهرية، وفي المظهر الخارجي فقط، لذا لا يمكن عدّ هذا دليلاً للتطور بأي حال من الأحوال.

يقـول العالم سير جيمس جينـز المختص في علم الفيزياء الكوني -الذي يعد مـن أكبر علماء القرن العشرين، والذي يعد من قبل الكثيرين بأنه "آنشتاين ثان"- في كـتابه "الكون المليء بالأسرار" و"الكون من حولنا" المترجمان للغة التركية: (إن الإنسـان المشغول بفرع من فروع العلم يصل إلى درجة الفناء في ذلك العلم). أي أن الإنسان يتشرب بفرع العلم الذي ينشغل به إلى درجة الفناء فيه. فلا يسمع إلا بـأذن ذلك العلم ولا يرى إلا بعينه، ولا يتكلم إلا بلسانه، ويعيش انفعالات ذلك العـلم. ويعطـي هذا العالم مثالاً على هذا فيقول: (إن الموسيقيّ الذي يتعوّد على سمـاع النغمة التي يصدرها المفتاحان الخامس والسادس على الدوام، لا بد وأنه عـندما يـنـزل سلما ويصل إلى الدرجة الخامسة ثم الثامنة سيخيل إليه أنه يسمع النغمتين نفسيها الصادرتين من المفتاحين الخامس والسادس في البيانو).

قام بعض العاملين في الحقل الهندسي بعمل أشكال مثلثة ومربعة في صحراء شبه الجزيـرة العربـية وفي الصـحراء الكبرى في أفريقيا وأوقدوا فيها النيران الكبيرة،

فأحدثوا أنواراً وأضوية قوية ساطعة لكي يجلبوا أنظار الكائنات الذكية الأخرى التي يــرون احتمال وجودها في الكون من الذين يفكرون هندسياً مثل الإنسان. هؤلاء العــاملون في الحقل الهندسي قد ذابوا وفنوا في عالم الهندسة. ويعتقد المختصون في حقــل الرياضيات أن الصانع جل وعلا قد خلق الكون بمقاييس رياضية. وهؤلاء أيضاً فنوا في الرياضيات.

أمــا داروِن فلكونــه قــد قضى حياته في ملاحظة وتدقيق ودراسة الحيوانات ومــتحجرات الحيوانات، ولم يخرج خارج إطار هذه الساحة فإنه نظر إلى الوجود وإلى الخلــق وباختصــار إلى كل شيء من زاوية، ومن نافذة هذه الساحة، ومن منظارها، واستعان بتفاسير لا يقبلها لا العلم ولا المنطق ولا العقل لكي يبرهن على فرضــيته. والأمر نفسه نلاحظه عند الذين تبنوا نظريته بتعصب وإصرار. وقد نبّه العالم الفلكي "جيمس جينــز" إلى مخاطر التخصص مع الاعتراف بفائدته.

● المتحجرات

الذيــن تبــنوا نظرية التطور من أجل تفسير منشأ الحياة وأصلها يرون ضرورة الاســتعانة بالمتحجرات، وذلك من أجل البرهنة على صحة هذه النظرية من جهة، وكذلــك بســبب عدم حدوث ما يثبت وقوع أي تطور ملحوظ ضمن العهود التاريخية المعروفة.

وقــد فعــل داروِن الشيء نفسه. بدأ بدراسة الطب في بادئ الأمر لكونه من عائلــة غنية، ولكنه كان يهرب من المدرسة ويتجول في الحقول منشغلاً بملاحظة النــباتات والأعشــاب ومهتما بها. وعندما لم ينجح في دراسة الطب قرر دراسة اللاهــوت. والظاهــر أنه كان يملك ذكاءً نظرياً، ولكنه لم يكن يملك ذكاءً عملياً بــنفس المستوى، لذا نراه يرى صعوبة في دراسة اللاهوت، وأخيراً أدت حادثة إلى

عـــثوره على مهنته المناسبة لــــه، فقد خرج في رحلة علمية بحرية رتبتها الحكومة البـــبريطانية. وفي هذه الرحلة البحرية قام ببحوث في جزر المحيط الأطلسي وأفريقيا وأمـــريكا الجنوبـــية واســـتراليا. وقام بمقارنات بين الأحياء في جزر كلاباكوس وحيوانات سواحل القارة، ودرس بعض المتحجرات، ولاحظ النشاطات البركانية وفعاليات المرجان. كما جمع بعض نماذج النباتات والحيوانات.

والخلاصـــة أنه لكي تتم البرهنة على أن الإنسان قد أتى من سلف قردي، وأن الأنواع تتحول من نوع إلى نوع آخر، فقد ظهرت الحاجة للاستعانة بالمتحجرات للعثور على الحلقات الوسطى وعلى المراحل الانتقالية الموجدة بين الأنواع عند هذه الـــتحولات. والذيـــن يقومـــون بهذا العمل هم علماء البالانتولوجيا (أي علماء المتحجرات).

فلو عثر علماء المتحجرات -من غير الحاملين لفكر وحكم مسبق- متحجرات لأحـــياء يمثلون هذه الحلقات الوسطى، أي على الأحياء التي تمثل المراحل الانتقالية بـــين الأنـــواع، وذكروا إمكانية ربط الإنسان بالقرد، وفي الوقت نفسه قام علماء الجيـــنات المحـــايدون بتأييدهم، عند ذلك فقط يمكن أن تحتل هذه النظرية قبولاً في المحـــافل العلمية، وعند ذلك فقط يمكن قبول مثل هذه النظرية، وقبول ألها تستحق إجـــراء الدراسات والبحوث حولها. وما لم يتم هذا لا يمكن عدّ ادعاءات التطور نظرية علمية.

متحجرة طائر

يتحدثون الآن عن متحجرة يقال أنها متحجرة لطائر طويل الذيل لـــه أسنان، كمـــا يملـــك كلابـــات في أجنحـــته، أطلقـــوا عليه اســـم "آركيوباتركـــس Arch teryx" وزعمـــوا أن هـــذا الطائـــر هو الحلقة الوسطى بين الزواحف والطـــيور. ويقـــول التطوريون استناداً إلى هذا بأنهم قد عثروا على مرحلة تطورية وســـطى بـــين نوعين، وأنهم سيعثرون على الحلقات الوسطى الأخرى التي تصل الإنســـان بأول دودة تطور منها، وسيملأون الفراغات الموجودة في هذه السلسلة. وهكذا سيبرهنون بأن الإنسان قد تطور من القرد.

عـــلماً بأنه لا توجد أي علامة ولا أي إشارة بأن هذه المتحجرة حلقة وسطى بين الزواحف والطيور، حيث نرى البروفيسور عاطف شنكون -وهو من المدافعين عن هذه النظرية- يقول في الجزء الأوّل من كتابه (التطور) عن هذه المتحجرة:

(لا تملك هذه المتحجرة قيمة دليل في المحافل العلمية). ولو عُدت هذه المتحجرة حلقـــة وســـطى، فليس هناك من مانع إذن من عدّ الخفاش في نفس القائمة، لأن الخفـــاش طائـــر ثديـــي، أي من الأحياء الثديية، لذا يمكن عده حلقة وسطى بين الثدييات وبين الطيور.

ولكـــن العلم لا يذكر أي عهد لم يكن الخفاش فيه موجوداً، كما لم يتعرض الخفاش لأي تغيير طوال وجوده، لذا لا تجد عند أنصار التطور أي نية في استعماله كدليل في موضوع التطور. وفي الوقت الحاضر هناك بعض الطيور التي لها أسنان في مـــنقارها وكلابات (أصابع) في أجنحتها مثل متحجرة ذلك الطائر، وأفضل مثال على هذا صغار طائر Opisthocomus hotzin.

لذا فإن الاستناد إلى مثل هذه المزاعم الواهية -في الوقت الذي لم يتم الكشف عن جميع الأحياء التي عاشت حتى الآن، بل لم يتم الكشف حتى عن جميع الأحياء التي تعيش حالياً- والبحث بهذه الطريقة عن الحلقات الوسطى حتى الوصول إلى الإنسان ليس إلا عبثاً لا طائل تحته، ولا تفيد في شيء. لأنه كان من المفروض وجود الملايين من متحجرات الحلقات الوسطى التي تبين مراحل الانتقال بين ملايين الأنواع من الأحياء. ومع أنه تم العثور على أعداد كبيرة جداً من متحجرات الأحياء التي عاشت سابقاً ثم انقرض نسلها، إلا أنه "لسبب ما!!" لم يُعثر حتى الآن على متحجرة واحدة كأنموذج وكمثال على أي مرحلة انتقالية أو حلقة وسطى بين الأنواع.

أما بعض الأحياء التي خلقت وعاشت في الماضي ثم انقرضت لأسباب عديدة على رأسها عدم تكيفها مع البيئة، كالديناصورات، فهي تشكل أمثلة على الانقراض وليس على التطور. وعلى الرغم من كل هذا فالإصرار منذ ما يزيد على قرن كامل على نظرية والقيام بصرف مبالغ طائلة في سبيلها لم يكن من أجل العلم ومن أجل الوصول إلى الحقيقة. وكما ذكرت فإن بعض المحافل العلمية مشغولة بنظرية التطور لكونها وسيلة في الوقوف ضد فكرة الخلق، أي ضد الإيمان بالله.

أسطورة الحصان ذي الأظافر الخمسة

أحـــد الأدلة المزعومة التي يستند إليها التطوريون في موضوع المراحل الانتقالية هـــو أسطورة "الحصان ذي الأظافر الخمسة". فحسب هذا الزعم كان الحصان في السابق بحجم الثعلب ويملك خمسة أظافر، وأنه مر بعد ذلك من مراحل Eohippus وMesohippu و Merychippus وأخيراً مـــن مرحلة Pliohippus وفي هـــذه المـــراحل قـــلّ عدد أصابعه. وينظر البروفسور "عاطف شنكون" إلى هذا الادعاء بشـــبهة حيث يقول: (لا نملك أي معطيات علمية حول مجيء الحصان من أحياء هذه المتحجرات). ولو فرضنا أن هذه المتحجرات صحيحة فلا بد أنها تعود لأنواع أخـــرى مـــن الأحياء عاشت في السابق ثم انقرضت، ولا يمكن ربط الحصان بهذه السلسلة. فإن أصررنا على ربطه بهذه الأحياء، عند ذلك يظهر أمامنا -كما يقول عاطف شنكون- سؤالان مهمان:

أولاً: لماذا نقص عدد أظافر الحصان -حسب هذا الادعاء- من خمسة أظافر إلى ظفـــر واحـــد؟ ولماذا تحول من حيوان بطول ثعلب إلى الطول الحالي للحصان؟ لا يملـــك العـــلم أي جواب على هذا السؤال. وتوجد حالياً حيوانات بأظفر واحد وبأظفـــرين وبـــثلاثة أظافر. وهناك كائنات شبيهة بالثعالب لا تزال تديم حياتها في الظـــروف نفسها. وهناك كائنات بخمسة أظافر لا تزال على قيد الحياة. فلماذ قام الحصـــان إذن بطرح أظافره الأربعة ليبقى بأظفر واحد وبحجم أكبر؟ ولو قيل بأن قوائمـــه استطالت لضرورة سرعة الجري، عند ذلك نسألهم: ولماذا لم تستطل قوائم كلـــب الصـــيد (الســـلوقي) إذن مثل الحصان؟ لأن كلاب الصيد تجري بسرعة كالحصـــان في الأقـــل، وهو أكثر استعداداً للنمو من الحصان، وأكثر حركة منه. فلماذا يكبر الحصان ويقلل من عدد أظافره بينما بقي كلب الصيد على حاله؟

لـــذا فكمـــا قال عاطف شنكون فإن هذه المتحجرات المذكورة أعلاه -التي يعدونها مراحل انتقالية للحصان- حقيقية وعاشت في بعض العهود ثم اختفت، فلا بد أنها أنواع أخرى عاشت في السابق ثم انقرض نسلها.

وجـــود المراحل الانتقالية شرط من ناحية علم الجينات أيضاً. لأنه استناداً إلى مـــثال الحصـــان الذي ذكرناه، لا يمكن أبداً تصور أن حيواناً بحجم الثعلب انقلب فجأة وبطفرة واحدة إلى حصان. فهذا أصعب من قفز إنسان عشرة أمتار إلى أعلى دفعة واحدة. إن طفرة واحدة -أقل من مثل هذه الطفرة من ناحية التأثير والقوة- يمكن أن تقضي على الحيوان. لذا كان من الضروري وجود مراحل وسطية عديدة تعقب بعضها بعضاً بشكل منتظم. والدليل على هذا أن البحوث والدراسات تجري على هذا الخط، وضمن هذا الإطار.

ولقد أجروا بحوثاً كثيرة وعثروا على متحجرات حديثة وعلى متحجرات قديمة عديـــدة، ولكـــنهم لم يعثروا على أي متحجرات تبين مراحل الانتقال من حصان بخمسة أظلاف إلى حصان بأربعة أظلاف ثم بثلاثة أظلاف ثم بظلفين. وقد اهتموا كثيراً بالمتحجرات التي تربط الإنسان بالقرد على زعمهم، فتكلموا عن متحجرات أمثال Australopithecus و Homo erectus و N de ومتحجرة رجل جاوة ورجل بكين.

نـــرى أن البرفسور "عاطف شنكون" يتناول هذه المزاعم بكل شبهة في الجزء الأوّل من كتابه "التطور" فهو يقول:

(إذا كانت المتحجرة موضوع البحث قد عثر على يدها على بعد خمسين متراً من رأسها، وعلى بعض عظامها في عمق عدة أمتار فمن المشكوك فيه أن تكون كل هذه العظـــام عائدة لمتحجرة واحدة ولمخلوق واحد، ولا يمكن التأكد من هذا. إذ يحتمل

أن بعض هذه العظام تعود إلى مخلوق عاش في حقب قديمة جداً، وأن بعضها تعود إلى مخلوق آخر عاش بعده بحقب عديدة. لذا لا يمكن هنا تقديم رأي قاطع).

وقـــد أفـــرط التطوريون في موضوع البحث عن الحلقة الوسطى بين الإنسان والقـــرد إلى درجة أنهم تحدثوا عن متحجرة (رجل بلتداون Piltdown) في ســـنوات ١٩١٢-١٩١٤ حيث زعموا أنه جد الإنسان الحالي. كانت المتحجرة عبارة عن قحف إنسان خمن بأن عمره يعود إلى خمسمائة سنة ماضية، مع فك قرد أورانجـــتون، مـــع بضعة أسنان إنسانية. وتبين في سنة ١٩٥٣-١٩٥٤ بأن هذه المتحجرة مزيفة تماماً و"مصنوعة"، أي أن بعضهم قام بتركيب فك وأسنان من قرد مـــن نـــوع أورانجتون على قحف إنسان، وركبوا بضعة أسنان إنسانية كذلك في الفك، ثم قاموا بإضافة مواد كمياوية على هذه الجمجمة لتبدو قديمة جداً. إن مثل هذه التصرفات يجعل من الصعب علينا تصديق الأبحاث المتعلقة بالمتحجرات. وهي تشير بل تؤكد إلى أن نظرية التطور خرجت من كونها مسألة علمية، وتحولت إلى مسألة أيدولوجية، وإلى عقيدة.[1]

---

١. إن محـــاولات التزيـــيف هـــذه لا تقتصـــر على هذا المثال فحسب، فقد قدّم التطوريون سمكة (Rhipitistian Crossopterigian) عـــلى أنها كانت الحلقة الوسطى بين الأحياء المائية والأحياء البرية وأن نسلها قد انقرض قبل ســـبعين مليون سنة. ولكن تم العثور على هذه السمكة حية قرب جزيرة مدغشقر عام ١٩٣٩، ومنذ ذلك الحين وحـــتى الآن عثر على ما يزيد على خمسين سمكة من هذا النوع. وعلاوة على هذا فلم تكن أعضاء هذه السمكة (تجـــاويف الأذن الداخلـــية، عظمة الظهر على شكل الرأس وكيس السباحة) بالأوصاف التي ذكرها التطوريون والـــتي ســـاقتهم إلى توهـــم أنها الحلقة الوسطى بين الأحياء البرية والمائية. وكما ذكر العالم التطوري (أ. هـــ. كـــلارك A.H. Clark) فالخلاصـــة هي أنه لم يتم العثور حتى الآن على أي متحجرة أو على أي نوع من أنواع الكائنات الحية يمكن عدّه حلقة وسطى، لذا فقد اضطروا إلى الاعتراف بأنه ما من حلقات وسطى قد وجدت في أي عهـــد من العهود. وقد اعترف (ريتشارد ب. كولد شميت Ri B. Goldschimdt) بأنه لم يتم العثور عـــلى أي مراحل انتقالية أو حلقات وسطى، لذا نرى أنه يقدم نظرية أخرى ترى أن الكائنات الحية ملأت هذه الثغرات والفجوات الموجودة بين الأنواع بالطفرات الفجائية. ولا يوجد أي تفسير لمثل هذا الادعاء سوى الإيمان بالخالق (د. آرلس: مجلة The Fountain العدد ٢٤ صفحة ١٤).

والبعد الآخر للمسألة هو: حسب أبحاث علماء البالانتولوجيا فإن أقدم متحجرة من هذه المتحجرات تعود إلى ما قبل مليون ونصف مليون سنة، بينما تم العثور في شاطئ بحيرة رودولف في كينيا على متحجرة إنسان عاش قبل ٢،٨ مليون سنة. كانت جمجمته كجمجمة الإنسان الحالي. وقد نشرت المجلة العلمية التركية (العلم والتكنولوجيا) في عددها الواحد والسبعين صورة الجمجمة مع مقالة مفصلة حولها. أي أن الكائن الذي قيل أنه يمثل المرحلة الانتقالية بين القرد والإنسان، تحول فجأة إلى حفيد من أحفاده! صحيح أن البعض ممن يستندون إلى بعض الكتب والمصادر الدينية -مثلاً الكتاب المقدس الموجود لدينا حالياً- واليهود ينتقدون القول بوجود مثل هذا التاريخ القديم للإنسان البالغ ٢,٥ مليون سنة. وهذا النقد متوجه طبعاً لعلماء المتحجرات الذين يستخدمون طرقهم وأساليبهم في تعيين الأعمار.

فإن تم الاعتراض على طرق قياس الأعمار لأي متحجرة من المتحجرات، انفتح باب الاعتراض على أعمار جميع المتحجرات الأخرى. لذا يجب عدم غض الطرف عن مدى صحة طريقة استخدام الكربون في قياس الأعمار وعلى الطرق الأخرى المستعملة في قياس أعمار المتحجرات. ولكن المهم عندنا هنا هو حقيقة أن الإنسان كان موجوداً على الأرض قبل وجود القرد، أو عاشا في الأقل في العهد نفسه.

الأشكال الخيالية لكائنات بين الإنسان والقرد

توضــع أشــكال معينة جنباً إلى جنب في الكتب الدراسية بزعم شرح نظرية التطور. ترى في هذه الأشكال شكل قرد ثم شكل ربع قرد، ثم نصف قرد ونصف إنسان، ثم ثلاثة أرباع الإنسان وأخيراً صورة شخص أوروبي في منتصف العمر.

وكــل هذا خداع في خداع. فلماذا تطور ذلك القرد يا ترى ولم تتطور بقية القــردة ؟ ولماذا ظهر في الأخير رجل في منتصف العمر، ولم تظهر إمرأة ؟ وكيف تم تطــور المرأة ؟ هل تطور قرد واحد، أم تطورت قرود عديدة في الوقت نفسه ؟ ولمــاذا لم تتطور القرود مرة أخرى في الأماكن التي احتشدت فيها القرود بمحض المصــادفة وتطورت ؟ وأي قسطاس علمي يرضى بأن تتم الإجابة على كل هذه الأســئلة -الــتي تــبين الــثغرات العديدة الموجودة في هذه النظرية- بالمصادفات وبالفرضــيات ؟ وأيــن حرمة العلم ؟ وماذا لو كانت كل هذه الجهود تتم باتجاه فكرة الخلق، التي تنفي وجود المصادفات في الكون، وتقول: إن جميع الدلائل تشير إلى وجود قدرة وعلم وإرادة لانهائية هي التي خلقت سلسلة الحياة هذه. أليس هذا أفضل وأليق وأكثر علمية؟

موضوع الطفرات

الطفـــرات إحدى نقاط الارتكاز المزعومة لنظرية التطور. وهي الفرضية القائلة بأن التغيرات الحاصلة في شفرات جينات الكائن الحي عن طريق المصادفات أو عن طريق ظروف البيئة تكون إحدى عوامل التغيير عند الانتقال من نوع إلى آخر.

إن الكـــروموزومات الموجـــودة في نواة الخلية -التي تعد بمثابة مركز القيادة في الخلـــية- تحتوي على الجينات. وكل الخصائص والمواصفات العائدة للكائن الحي موجودة ومسجلة في جينات هذه الكروموزومات (على شكل جزيئات .D.N.A). وجزيـــئات (.D.N.A) -الـــتي تشـــكل آلية القيادة والأوامر- بمثابة مخزن جيني لـــلمعلومات، وقد خلقت بحيث تستطيع حتى من استنساخ نفسها، لذا فهي مرآة الإلهية.

فكما يقوم جهاز الكومبيوتر عند الضغط على زر من أزراره بتقديم المعلومات المبرمجة في ذاكرته من قبل وعرضها أمامنا، كذلك تقوم هذه الآلية بتطبيق البرنامج المدمـــج فيها بكل كفاءة ودون أي نقص أو قصور، بل تقوم بتشفير هذا البرنامج على الدوام. وبواسطة هذه الشفرات تستطيع الحفاظ على خصائص نوعها وتكون حارســـة لها عند إصدار الأوامر في مختلف الفعاليات. أي أنه ما من تأثير خارجي يســـتطيع تغـــيير هذه الشفرات ولا اجتياز الحواجز والأسوار والموانع التي وضعتها هذه الشفرات. فلا تستطيع لا الطفرات ولا أي شيء آخر تغيير خط ذلك النوع.

صحيح نحن نعلم بأن مختلف الإشعاعات والمواد الكيمياوية والظروف الأخرى للبيـــئة تُحدث بعض التغييرات في شفرات جينات الأحياء وفي برامجها. ولكن مثل هذه التغييرات الحاصلة في الشفرات الجينية -والتي يطلق عليها اسم الطفرات- لأي

سبب من الأسباب لا تستطيع العمل على إنتاج نوع جديد من الأحياء، ولا تغيير أي كائن حي من نوع إلى نوع آخر.

ولكن على الرغم من كل هذا فإن الداروينيين الجدد يزعمون بأن هذه التغيرات تتلاحق وتتجمع مما يؤدي في النهاية إلى ظهور نوع جديد. ولكن أيكفي عمر أي فرد لحصول كل هذه التغيرات عنده؟ أي أيكفي عمر الفرد ليتحول إلى نوع آخر بهذه التغيرات؟ من الواضح أنه لا يكفي. ولكن لنفرض أنه يكفي، فهل هذه التغيرات تكون مفيدة وبمقياس يكفي لتحويله إلى نوع آخر؟ هذا مستحيل. أي إن هذه التغيرات الحاصلة في الفرد تكون من النوع السلبي مثل تشوه الأعضاء أي من النوع الذي يضر بالنسل، وقد أيد علم الجينات هذا الأمر. كما لم يتم حصول العكس حتى الآن.

إن الأبحاث الأخيرة الجارية حول مرض السرطان تشير إلى أن التأثيرات الضارة مثل الإشعاعات وتلوث الجو، تعد من الأسباب المؤدية إلى تخريب الخلية وتشويهها مما يكون سبباً في حدوث مرض السرطان. ثم إنه لم تتم مشاهدة أي تغيرات من هذا النوع لا في الإنسان ولا في الأحياء المجهرية من العهود السابقة التي تستطيع الأبحاث العلمية الامتداد إليها وحتى الآن. وقد أجرى رجال العلم -للبرهنة على صحة هذا الزعم- تجارب على ذبابة الفاكهة "دروسوفيلا" سنوات عديدة، وحصلوا على أكثر من ٤٠٠ نوع مختلف من نسلها.[1] ويعطينا البرفسور "عاطف شنكون" المعلومات الآتية حول هذه التجارب فيقول:

١. قام العلماء بتعريض أعداد كبيرة من هذه الذبابة إلى العديد من أنواع الإشعاعات وللمواد الكيمياوية والحرارة الشديدة لإحداث طفرات عليها وتغيير نوعها، فلم يحصلوا إلا على ذبابات مشوهة وعقيمة وفاقدة لبعض أعضائها (كأجنحتها وأرجلها)، ولم يحصلوا على أي تغيير مفيد لهذا الكائن الحي. (المترجم)

(ومع أننا لم نلاحظ حصول أي تغيرات جذرية في ماهيتها، إلا أنه تم حصول تغيرات عليها نتيجة تعرضها للطفرات. ولكن لم يتم الحصول على نسل جديد نتيجة تلاقحها وتناسلها).

والخلاصة أن التجارب العديدة التي أجريت على أكثر من ٤٠٠ من ذبابة الفاكهة أظهرت أنه -مع حصول تغيرات طفيفة عليها- من المستحيل أن يتغير نوعها أو ماهيتها. فقد حدثت تغييرات غير ذات أهمية على ذبابات الفاكهة نتيجة تأثير الشروط والظروف البيئية عليها مثلما يحدث على الإنسان من تغييرات بسيطة من ناحية احمرار الجلد، أو ارتفاع ضغط الدم. وعندما تمت عمليات التناسل بين هذه الذبابات المتعرضة لهذه التغيرات لم يتم الحصول على نسل جديد، أي أصبحت هذه الذبابات عقيمة، كما أن تشوهات عديدة ظهرت عليها.

لقد أعطي للإنسان حق وصلاحية التدخل في الطبيعة بمقياس معين، لأنه خليفة الله في الأرض ومكلف بإعمارها واكتشاف العلوم وتطويرها استخدامها في هذا السبيل، مما يوجب عليه مثل هذا التدخل. ولكن هذا التدخل لن يستطيع تغيير الحيوانات من نوع إلى آخر. أما في النباتات فيمكن -حسب القوانين التي وضعها الله تعالى في الطبيعة- بواسطة عملية التطعيم في الأشجار الملائمة للتطعيم الحصول على نوع آخر من الأشجار. ولكن يجب التنويه بأن هذا غير ممكن في جميع الأشجار، فأي شجرة كانت ملائمة للتطعيم حسب طبيعة خلقها فيمكن تحويلها إلى نوع آخر بالتطعيم. ولكن لا يوجد في عالم الحيوان تغيير بهذا المقياس. ولكن يستطيع الإنسان بعملية التلقيح، أيْ باستخدام مني جاموس مثلاً من نوع جيد لتحسين نسل جاموسة أقل منه نوعية.

وخارج هذا النطاق فقد سمح الله بعملية التناسل والإنجاب بين الحصان والحمار. ولكن البغل الناتج من هذه العملية -التي تعد عملية استثنائية في عالم

الحيوان- يكون عقيماً. أي إن مثل عمليات التناسل التي تتم بين أجناس مختلفة من الحـــيوان تكون الذرية الناتجة عقيمة، فلا يمكن ظهور نوع جديد منها. و لم يلاحظ -خارج هذا الأمر- أن تراكمات للطفرات ضمن شريط زمني طويل يمكن أن تنتج نوعـــاً جديـــداً من الأحياء. و لم تنتج من المحاولات العديدة التي جرت على بعض أنـــواع الأحياء سوى فروقات طفيفة كقصر في السيقان، أو اختلاف في الألوان. ولكـــن حافظ كل نوع على نفسه وعلى خواصه وأصله، فبقي الذئب ذئباً وبقي الخروف خروفاً.

والـــتدخل الإنساني لا يقلب الذئب إلى خروف، ولا الخروف إلى ذئب. وهذا الأمـــر ليس صحيحاً وجارياً في مثل هذه الأحياء المعقدة التركيب فقط، بل لم تتم مشـــاهدة تغيرات ذات بال حتى في البكتريات التي هي أصغر الكائنات الحية. وقد لوحـــظ أن هذه البكتريا التي تتكاثر بالانقسام كل عشرين دقيقة بالرغم من كونها تصـــاب بالطفرة بعد ٦٠ ألف جيل من أجيالها فإنه لا يوجد أي فرق بينها وبين أجدادهـــا مـــن البكتريا التي عاشت قبل ٥٠٠ مليون سنة، ولا مع أجدادها من البكتريا التي عاشت قبل مليار سنة كما أثبت ذلك علم المتحجرات.

والمســـألة الأخـــرى هـــي -كما ذكرنا ذلك باختصار من قبل- أن علماء المـــتحجرات يقولـــون بأنـــه لكي نقبل بحدوث التطور يجب العثور على الحلقات الوســـطى والمراحل الانتقالية بين الأحياء. ولكن بعض الداروينيين لا يرون ضرورة لوجـــود هذه المراحل الانتقالية ويرون أن الكائن الحي يستطيع القفز فجأة إلى نوع أعلى، فيقولون بأن من الممكن مثلاً أن يخرج طائر من بيضة تعود لحيوان زاحف.

ويقوم علماء الجينات بالرد على هؤلاء، ويقولون باستحالة قيام أي كائن حي مـــثلاً بتبديل ١٠٠٠ صفة وخاصية مرة واحدة. يقول الدكتور "لوكومت دنوي Dr.Lecomte de nouy": (يحـــتاج الحصان إلى خمسة ملايين سنة لكي يستطيع

تــبديل خمســـة أظلافـــه بظلف واحد). لذا فإذا أخذنا هذه المسألة في ضوء هذا الـــتكامل الـــتدريجي فإن زعم حدوث مثل هذه الطفرة الفجائية ليس إلا سخف واضح. فإن قيل لنا بأنه تغير تدريجياً وعندما بلغ نقطة معينة تبدل فجأة، عند ذلك نقول لهم بأن من الضروري حدوث هذا التطور والتغير خطوة فخطوة. فمثلاً يجب لكـــي يـــتحول الحصان إلى كائن بظلف واحد وجود حصان بأربعة أظلاف، ثم حصان بثلاثة أظلاف ثم حصان بظلفين.

ولا شك أن التغير يجب ألا يقتصر على عدد الأظلاف، لأن الجسم عندما يقوم بفعالياته فإن كل جزء منه مرتبط بعلاقات وثيقة مع الأجزاء الأخرى. وحتى عندما يندمل جرح في الجسم يمكن ملاحظة اندماله بسهولة. لذا فلا يمكن عدم ملاحظة كل هذا التغير الكبير. والخلاصة أن من المستحيل أن يخرج طائر من بيضة زاحف. لأن تغـــيراً بقوة مئات من الطفرات سيؤدي إلى هلاك ذلك الكائن الحي في لحظة واحدة.

تحدث انقسامات سريعة وتكاثر سريع في الأحياء المجهرية. فمثلاً ينقسم بكتريا Ascherichia coli كـــل عشرين دقيقة وبشكل متعاقب. وتتناسل ذبابة الفاكهة ثلاثـــين مرة في السنة الواحدة. أي أن السنة الواحدة لهذه الذبابة تعادل مليون سنة مـــن ســـنواتنا، فما يحصل لدى الإنسان من تغير طوال مليون سنة يجب أن يحصل لدى هذه الذبابة في سنة واحدة. فلو حصل تغير في النوع لدى هذه الذبابة في سنة واحـــدة قبلـــنا آنذاك أن مثل هذا التغير النوعي قد يحصل لدى الإنسان في مليون سنة. ولكن الحقائق المشاهدة هي على النقيض من هذا تماماً.

وهـــناك مـــن عـــلماء المتحجرات من يذكر أن البكتريا والطحالب الخضراء والـــزرقاء عاشت في العهد السلوري والبرمي وهي من العهود الجيولوجية القديمة. ويرد في بعض الكتب أن هذه البكتريات وجدت قبل ٣٠٠ مليون سنة، وفي كتب

أخرى أنها وجدت قبل ٥٠ مليون سنة، وأنها طوال خمسين أو ٣٠٠ مليون سنة لم تتغير وأن البكتريات الحالية تشبه تلك البكتريات السابقة تماما.

وقـــد يعترض بعضهم علينا فيذكر بأن متحجرات الطحالب الخضراء والزرقاء قلـــيلة جداً، وهذا يؤدي إلى تعذر البرهنة على تعرضها لأي تغيير أو تطور. ولكننا عـــلى أي حـــال نتكلم عن الكائنات الحية التي لها القابلية على سرعة التكاثر مثل البكـــتريا. فهذه الكائنات لم تتغير و لم تتطور طوال مدة خمسين وربما طوال ثلاثمائة مليون سنة.

كما لم تتم مشاهدة أي تغيرات في الحيونات في الحدائق الطبيعية التي أنشئت في مختلف أنحاء العالم وفي حدائق الحيوانات والتي عرضوا فيها هذه الحيوانات لمختلف الظـــروف الطبيعية. وهناك مختبرات عديدة تطبق فيها أبحاث ومحاولات لإحداث الطفرات، ولكن لم يتم الوصول حتى الآن إلى أي نتيجة. أما بعض الحوادث الجزئية التي ادعوا أنهم بحثوا فيها في هذا الصدد فترجع إلى الخصائص الفطرية الموجودة في تلـــك الأنـــواع. أي أن هذه الأنواع لها قابلية لظهور هذه التغيرات فيها. هذا مع العـــلم أن قانوناً –كالتطور– يدعي أنه هو الأساس في تفسير الكائنات الحية وفي تفسير الحياة لا يمكن أن يكون محدوداً في نطاق ضيق جداً وفي مشاهدات وتغيرات جزئية، بل يجب أن يكون شاملاً لجميع الأحياء.

لقـــد وضـــع الله تعالى استثناء لكل قانون عام في هذا الكون، لكي لا يتعلق الإنســـان بهـــذه القوانـــين وينسى الفاعل الحقيقي وراءها الذي هو الله تعالى رب العـــالمين. وعلى الرغم من هذا فلم يتم العثور حتى الآن على حادثة تحول في هذا المستوى في الأبحاث الجارية في المختبرات.

يوجد في هذا الصدد حادثة الكائن الحي الذي يطلق عليه اسم Allopoliploidi

والــذي يوجد في جنسه نوعان مختلفان، حيث تمت مضاعفة عدد الكروموزومات ثم تمــت إجــراء عملــية التناسل بينهما فظهر نوع هجين منهما. فمثلاً إن قمنا بمضــاعفة عــدد الكروموزومات في الكرنب والفجل ثم قمنا بعملية تلقيح بينهما حصــلنا على نوع جديد من الفجل. ولكن هذا يحدث في عالم النباتات، وكلما تــرقى الأحــياء ووصلت إلى مستويات أعلى استحال ظهور هذه الأمور. لذا فلا يمكن العثور على أمثال هذا في عالم الحيوانات وفي عالم الإنسان.

القــيام بمضــاعفة عدد الكروموزومات، وكذلك القيام بعمليات التناسل بين الأنواع المختلفة يؤدي في الظروف الطبيعية إلى عقم الحيوان الناتج من هذا التناسل (كالبغل مثلاً). ونظراً لأن مثل هذا المخلوق لا تكون أمامه فرصة ليصبح أباً أو أمّاً لذا نقوم بمضاعفة عدد كروموزوماته إلى الضعف. وكما ذكرنا فإن هذا الأمر غير وارد في عالم الحيوان، وإن كان وارداً في عالم النباتات. إن عدد الكروموزومات في الإنسان يبلغ ٤٦ كروموزوماً. أي أن هذه الكروموزومات هي التي تعين الصفات البيولوجية للإنسان، وهي التي تعين ماهيته.

وعــلى الــرغم مــن هذا فعندما يتغير هذا العدد ويصبح ٤٥ أو ٤٧ أو ٤٨ كــروموزوماً، فلا يظهر هناك نوع آخر من الأحياء، بل يظهر إنسان مشوه وغير طبيعي. أي ان الفرق في عدد الكروموزومات يؤدي إلى تشوهات جذرية. لذا فلو قمــنا بمضــاعفة عدد الكروموزومات عند الإنسان فلا نحصل على نوع آخر من المخلوقــات، بل على طفل بشري ولكنه يموت قبل أو بعد الولادة ولا يعيش. أما عــندما يكون التغير في عدد الكروموزومات بمقياس لا يؤدي إلى الموت، فالنتيجة تكــون ظهــور العاهــات والتشــوهات والأمــراض. لــذا فإن التلاعب بعدد الكروموزومات في عالم الحيوان وفي عالم الإنسان لا يجلب سوى الكوارث. أي أن الطفرات –التي تعني تدخلاً في نظام D.N.A. للكائن الحي– تؤدي إلى نتائج ضارة

وتـــأثيرات مميتة عند الأحياء. لذا لا يمكن الحديث عن طفرات تؤدي إلى تغيرات كبيرة ومفيدة في الوقت نفسه.

وقـــبل إكمـــال هـــذا الموضوع يجب التطرق إلى أمر آخر، وهو زعم بعض الـــتطوريين -ولاســـيما في تركيا- بأن شفرات خريطة الجينات في الإنسان قد تم حـــلها. وهم يريدون استخدام هذا الأمر كدليل على التطور، بينما يذكر العلماء الحقيقـــيون بأنه من السابق لأوانه القول بحل شفرات خريطة الجينات في الإنسان. ففـــي مقـــابل الادعاء بأن نسبة معينة من الجينات متراصة، نرى هناك عدم اتفاق حـــول عدد الجينات الموجودة في الإنسان، فهم يعطون أرقاماً تتراوح بين ٢٨ ألفا إلى ١٤٠ ألفا من الجينات.

ويقـــول العلماء بأن رصّ نسبة من هذه الجينات لا يعني حل شفرات خريطة الجيـــنات. كما يشيرون بأنه لا يمكن بهذا قراءة "كتاب الحياة". كما يذكرون بأن الـــنجاح المـــتحقق حـــتى الآن في هذا الموضوع يساعد فقط في تشخيص بعض الأمـــراض الجينية. لأن معرفة شفرة جين من الجينات لا يعني معرفة البروتينات التي يقـــوم هذا الجين بإنتاجها في الجسم، ولا معرفة أي البروتينات ستتأثر بهذا البروتين أو تؤثر فيه، فهذا الموضوع ليس واضحاً حتى الآن.

إن الخـــالق ذا الرحمة غير المحدودة كما وضع المعلومات الجينية بشكل مزدوج، كذلـــك جعـــل شفرات الأحماض الأمينية -من باب الأمن والاحتياط- أكثر من شـــفرة واحـــدة. وهذه المعلومات الجينية مثل لغة إن لم تُقرأ بشكل صحيح وتتم ترجمـــتها بإنـــتاج بـــروتين جديد فلا قيمة لها. لذا كان من الضروري تحول هذه المعلومـــات بشكل صحيح وبالمقدار الصحيح وفي الوقت المناسب إلى بروتينات، علاوة على ضرورة وجود هذه المعلومات من ناحية استمرار الحياة والصحة.

والســؤال المطروح هنا: من الذي يعطي الإذن لاستعمال بعض هذه المعلومات الجينـية الموجــودة في الكروموزومات -والتي يشكل كل منها موسوعة معارف كاملــة- ولا يســمح لبعضها الآخر؟ لقد دلّت الأبحاث أن هناك بروتينات تملك خاصية وقابلية فتح معلومات معينة وقراءتها، وغلق معلومات أخرى ومنع قراءتها. وبعــبارة أخــرى إن الشــفرات الجينــية تحل رموزها وتُقرأ من قبل مجموعة من الــبروتينات لاستعمالها في صنع البروتينات، حيث تقوم هذه البروتينات المصنوعة بتعيين متى وبأي شكل يجب أن تتم قراءة هذه المعلومات.

فــيا تــرى من أين تتلقى هذه البروتينات أوامرها، ومن الذي يوجهها في هذه الفعالــيات التي يعدّ مجرد اكتشافها حتى من قبل الإنسان -الذي يعد أرقى الأحياء مــن ناحية الشعور والفكر والعلم- فتحاً كبيراً ونجاحاً متميزاً؟ وكيف تصل هذه البروتينات إلى وضع تستطيع فيه تدقيق البرنامج الجيني الذي أخذته من أجل إنتاج نفســها ثم الســيطرة عــلى هذه المعلومات فيما بعد؟ ونستطيع أن نشاهد برنامجاً غامضــاً عند القيام بإنتاج نسل جديد. كما أن من المدهش جداً ما نراه من قابلية الحيوان على إصلاح الأعضاء الجريحة أو المقطوعة أو التالفة وتجديدها، وإن كانت هذه الأمور تجري تحت ستار من الإلفة.

فالخلايــا الموجــودة في الأعضاء المقطوعة أو التالفة كانت خلايا اعتيادية في الجســم، ولم تكن قد تميزت. فمثلاً عندما تُقطع رجل من أرجل الضفدع تبدو أن الخلايــا نفســها -وكأنها تلقت أمراً سرياً من مصدر ما- تتمايز وتقوم بتشكيل خلايــا غضروفية وخلايا عظمية وخلايا عضلية والأنسجة الجلدية (Epitelyum) لكي تشكل منها ساقاً جديدة:

فهــل يوجد تخطيط لبناء الأرجل في هذه الخلايا؟ هل هناك مثل هذا التخطيط تعــرف منه هذه الخلايا أن الكائن الحي بحاجة إلى رجل فتقوم بصنعها وتنفيذ هذا

المخطط؟ ولماذا لا تنشط هذه الخلايا إلا عندما يحتاج الجسم إلى مثل هذه الفعالية؟ وبما أنه يستحيل على الخلايا معرفة هذا، وبما أنه لا يوجد في الجسم ولا في الطبيعة أي آلية أو مركز يقوم بتزويد الخلايا بمثل هذه المعلومات والإيعاز إليها للقيام بهذه الفعالــيات إذن فهناك من يعرف جميع حاجات الجسم، وله القدرة على تلبيتها... إذن هناك من يعرف مكان وزمان كل هذه الأعمال والفعاليات.

زعم شجرة النسب، وشجرة الوجود

إن سيناريو شجرة النسب الذي أطلقه التطوريون وأصروا عليه باسم نظرياتهم متشـــابك جـــداً ومختلط. والاكتشافات الجديدة في علم البيولوجيا الجزيئية تعرض مشـــاكل ومطـــبات وألغاز ومصاعب جمة أمام نظرية التطور، إلى درجة أن هذه الـــنظرية حشـــرت تماماً في زاوية ضيقة. لأن "أشجار النسب" التي عملت باتخاذ مجموعات مختلفة من الجزيئات أساساً أدت إلى ظهور نتائج مختلفة إلى درجة أنه لم يعـــد معلوماً من تطور ممن، و لم يعد في الإمكان الخروج من هذا المأزق ومن هذه الفوضى.

وعـــلى الـــرغم من هذا فلا يزال التطوريون يقولون: "عندما نتخذ مجموعات مخـــتلفة من الحيوانات يمكن أن نحصل من مجاميع الجزيئات البيولوجية المختلفة التي نـــتخذها أساساً أشجار نسب عديدة مختلفة". ولكنهم عندما يقومون بهذا يعترفون ضـــمناً بـــأنهم أخذوا نظرية التطور كحقيقة مُسلّم بها منذ البداية، ثم رصّوا ما في أيديهم ورتبوه على هذا الأساس، ومن ثم رسموا أشجار نسب خيالية. كما أن زعم التطوريين بأن جذر الوجود شيء وجذعه شيء، وأغصانه وأثماره شيء آخر زعم خاطـــئ. لأن الأبحاث أظهرت بأن الجذر والجذع والأغصان والأوراق توجد معاً وتعيش معاً.

كـــان في العهد الكمبري الكثير من الأحياء التي جعل التطوريون بعضها سلفاً وجـــداً للآخـــر... بينما نرى أنها كانت تعيش معاً وأنها ظهرت جميعاً إلى الوجود فجـــأةً. كما أن من الحقائق الثابتة أن العديد من الأحياء البسيطة التركيب عاشت معاً وفي العهد نفسه مع حيوانات معقدة التركيب. وهذا يعني أن أحياء -كان من

المفـــروض أن تعـــيش أحفاد لها بعد ١٠٠٠٠٠ جيل- عاشوا مع أحياء كان من المفروض ألا يعيشوا معها إلا بعد ١٠٠٠٠٠ جيل. ويعني كذلك أن من الممكن أن تعيش الأحياء البدائية التي زعم أنها عاشت قبل مليارات السنين، جنباً إلى جنب مع الأحياء المعقدة التركيب التي خمنت من قبل أنها عاشت بعدها بمليارات السنين.

وعـــلاوة عـــلى هـــذا فقد ظهر العديد من الأحياء -بدءاً من الأحياء العديمة الفكـــوك ذات الحراشـــف إلى أسماك القرش من الأحياء التي تعيش بيننا حالياً- في العهـــد الديفوني فجأة، وقد استطاعت اجتياز ذرى العهود لتصل إلى أيامنا الحالية، حيـــث يســـتحيل على نظرية التطور تفسير هذا الأمر. فمثلا نرى أن التطوريين يـــزعمون أن مجموعة Crossopterygi السمكية -التي تعد حسب نظرية التطور سلفاً للضفدع- قد انقرض نسلها قبل سبعين مليون سنة، بينما نعلم أن مجموعات كبيرة منها شوهدت في سواحل أفريقيا. كما ظهر للعيان أن الضفادع والزواحف عاشتا معاً في العهد الكربوني، وهذا ما لا يمكن فهمه من زاوية نظرية التطور، أي أن كـــلا هذيـــن الأمـــرين يعدان ضربتين قاتلتين للفكر الذي يرى أن الزواحف تطورت من الضفادع.

الانتخاب الطبيعي

الانـــتخاب الطبـــيعي هـــو إحدى نقاط الاستناد التي يستند إليها التطوريون. والانـــتخاب الطبـــيعي يعـــني أن الأحياء التي لا تستطيع مقاومة المصائب الطبيعية المخـــتلفة وكوارثها كالسيول والزلازل تنقرض وتزول من مسرح الحياة، ولا يبقى هناك إلا الأحياء القوية المقاومة للظروف الطبيعية المختلفة.

أنا لا أدري أولاً علاقة هذا الأمر بالتطور، ولا أدري بأي نسبة يمكن أن يكون مرتـــبطاً بـــه. لأنه لا يوجد أي دليل أو أمارة بأن أي نوع من أنواع الأحياء التي بقيت بعد الكوارث قد غير نوعه. ومع أنه يشار إلى أن أنواعاً معينة من الأحياء قد انقرضـــت، إلا أن مـــتحجرات هذه الحيوانات المنقرضة لم تظهر للوجود كأنواع جديـــدة، كما أن الأحياء القوية التي بقيت سالمة بعد الكوارث لم تطفر إلى أنواع أعـــلى. ثم إنـــه يوجد داخل كل نوع من الأنواع على الدوام أفراد أقوياء وأفراد ضعفاء، وهما يعيشان معاً جنب لجنب. ولله سبحانه وتعالى حكم عديدة ومدهشة ضمن القوانين التي أودعها في حياة الحيوانات عندما جعل بعض الحيوانات ضعيفة، والأخرى قوية في النوع الواحد أو في القطيع الواحد.

إن تغذي بعض الأنواع باللحم يؤدي إلى تشكل سلسلة من الغذاء في الطبيعة، وبهذه الواسطة يستمر التوازن البيئي في الطبيعة بكل كماله. ولو لم يحدث هذا، أي لـــو لم يكـــن هناك في قطيع الغزال أي غزال يستطيع الأسد أو النمر صيده، أو لو كـــان جمـــيع أفـــراد نوع ما قوياً، لكانت النتيجة أن يموت كل أنواع الحيوانات المفترســـة الـــتي تتغذى على اللحم، ولتكاثرت الحيوانات الأخرى على حسابها، ولفســـد الـــتوازن البيـــئي من أساسه. لذا فإن مشاهدة مثل هذه الحادثة وكون

الحيوانات الضعيفة طعماً لأحياء أخرى هو من أجل بقاء هذه الأحياء.

ويجب هنا التنبيه على ما يأتي: عندما يُقضى على الأفراد الضعفاء في جيل من الأحياء فلا يعني هذا أن الأجيال القادمة ستكون قوية، ففي كل جيل يوجد الضعفاء جنباً إلى جنب مع الأقوياء. وعندما يكون الضعفاء والمتقدمون في السن والذين لا يتكيفون مع القطيع طعماً للحيوانات المفترسة فإن حياة القطيع تستمر.

انطلاقاً من هذا يقترف التطوريون والذين يؤلهون الطبيعة جناية كبرى عندما يأخذون مثالاً واحداً أو حادثة واحدة ويجعلونها شاملة لجميع حياة الأحياء فيصوررون الحياة وكأنها عبارة عن صراع وعراك. فهم يعدون أن الغاية الوحيدة من الحياة هي محاولة الأحياء الاستمرار في الحياة، والحصول على الغذاء من أجل تحقيق هذه الغاية. وعندما يقوم التطوريون والماديون وعبّاد الطبيعة بتقييم حياة الإنسان أيضاً على نفس النحو فهم يقدمون ذريعة للأقوياء للبقاء على حساب الضعفاء، ويرون في هذا حقاً طبيعياً لهم، كما يقدمون الحياة وكأن الغاية الأساسية منها هي الأكل والشرب والتناسل. وهذا يؤدي إلى قطع التعاون بين الناس وبين الأمم والشعوب، ويجعل استغلال الإنسان شيئاً مشروعاً ولا غبار عليه، فينزعون عن الإنسان جميع قيمه السامية، وينزل به إلى درك الحيوان بل أسفل منه وأضل.

بينما الصراع شيء ثانوي في الحياة وفرعي. والأصل هو التعاون، فأعضاء جسم الكائن الحي في تعاون مستمر فيما بينها. وتتعاون الشمس بضيائها وحرارتها مع الهواء والماء والتربة لإنتاج الأثمار للإنسان أو للحيوان حسب أجناسها وأصنافها. أي أن عناصر الكون كلها تتعاون في إنبات النباتات على الرغم منها للحيوانات وللإنسان، وتسخر الحيوان من أجل الإنسان، كما يقوم الإنسان -إن كان على وعي بوظيفته في الأرض كخليفة- بنجدة النبات والحيوان، ويقدم جهوده من أجل الحفاظ عليهما.

وبينما يقوم الحيوان والنبات -ضمن حوقة التعاون الرائع الموجود في الكون- بالطاعة الجبرية للقوانين الإلهية الموضوعة (لأن هذه الطاعة جزء لا يتجزأ من فطرتهما) نرى أن الإنسان الذي جُهز وشُرّف بالإرادة يشترك في كادر وفي نظام هذا التعاون بإرادته. وانطلاقاً من هذا تقع عليه وظيفة القيام بتحويل هذه الأرض إلى ساحة للتعاون والأخوة، وليس إلى ساحة صراع وحرب. ولكن التطوريين يتناولون هذه المسألة بشكل معاكس، لذا لا يمكن القول أنهم لا يتحملون أي مسؤولية عن الانقلابات وعن الصراعات والحروب التي حدثت في العصرين الأخيرين التي كانت بمثابة كوارث دولية وفواجع عظيمة.

وينظر التطوريون إلى هذه الكوارث وإلى أمثالها من الاستعمار الدولي، وتجارة الرقيق والتمييز العنصري، وسيادة القوة على الحق وكأنها "المسيرة الطبيعية" للتاريخ. وبهذا يعطون الحق والشرعية لها بوجه من الوجوه. لذا نرى أن كارل ماركس مؤسس الشيوعية الذي وضع نظريته في التاريخ على هذا الأساس[1] يدين بالشيء الكثير لدارون.

لذا فليس من الغريب أن يكون الشيوعيون من أكثر الماديين ارتباطا بنظرية التطور ودفاعا عنها. لأن نظرية التطور من الأسس التي يستند إليها الإلحاد. وفي الحقيقة فإن جميع هذه العوامل هي الأسباب الكامنة وراء الإصرار للإبقاء على نظرية التطور واقفة على قدميها في دنيا العلم، حيث قلبت هذه النظرية إلى عقيدة وإلى أيدولوجية مقدسة. وكم هو غريب ومتناقض أن نرى هؤلاء وهم يزعمون أنهم أبطال الحرية والمدافعون عن حقوق الإنسان، وحقوق المضطهدين والمسحوقين.

١. كما هو معلوم فإن النظرية الماركسية للتاريخ تقوم على صراع الطبقات، وهو ما يقابل الصراع من أجل البقاء في نظرية التطور. (المترجم)

وعلى الرغم من زعم التطوريين حول الانتخاب الطبيعي، فإن الكوارث الطبيعية التي لا قبل لأحد في مواجهتها كالسيول والزلازل وما يتبعها من خراب والهدام لا تقضي على الأفراد الضعفاء من الأحياء فقط، بل تقضي حتى على أقوى الأقوياء منها. فمثلاً نرى أن موجة بحرية عاتية تضرب الآلاف من الأحياء الضعيفة منها والقوية بالصخور وتقضي عليها، أو تسحبها إلى البحر وتغرقها.

ثم إنه على الرغم من هذا الادعاء فإننا نرى في كل عهد من عهود التاريخ، وفي كل سنة وموسم ويوم أن أضعف الأحياء يعيش -ضمن القوانين الإلهية الموضوعة في الطبيعة- مع أقوى الأحياء جنباً إلى جنب. فنرى الحوت وهو يعيش مع أصغر الأسماك ومع سمك القرش، ونرى في الجو النسر مع اللقلق ومع العصفور والحمام، وفي البر نرى النمل والأرانب والأسود والفهود، والغزلان، والوشق تعيش معاً، حيث نرى أن التوازن البيئي والطبيعي مستمر بدرجة الكمال منذ ملايين السنين دون أن يصيبه أي خلل. بل إن الأغنام والحمام والغزلان وغيرها من الحيوانات الضعيفة غير آكلة اللحوم وغير المفترسة تتكاثر بصورة أقل من غيرها، وتضع مولوداً واحداً أو مولودين فقط في السنة، ومع ذلك نراها أكثر عدداً في كل مكان من الحيوانات المفترسة التي تتكاثر أكثر منها.

إذن فليست هناك عملية إبادة، بل هناك عملية خدمة الحياة، حيث أن الأحياء التي لا تعد ولا تحصى من النباتات والحيوانات التي لا تعقل ما تفعله، تقوم بحياتها ووجودها بتقديم خدمة جليلة، لتحقيق أهداف علوية، وهي بأعمالها هذه تسبح الله تعالى وتحمده. لذا فلا يمكن البحث عن الانتخاب الطبيعي بالمقياس الذي يدّعي التطوريون وجوده في الطبيعة، وليس هو بالقانون الطبيعي الذي لا يمكن رده أو الوقوف في وجهه في الحياة الاجتماعية للإنسان والأمم، ولا ظاهرة اجتماعية سائدة.

إن أعـــداد الأحـــياء الضعيفة بدءاً من الأحياء المجهرية إلى النمل والنحل، إلى غـــزلان الصـــحاري، إلى أسماك البحار أكثر من أعداد الأحياء القوية جداً أضعافاً مضـــاعفة. وإن استمرار انبثاق الحياة حتى في الأجواء القاتلة سواء عند الإنسان أو عند الحيوانات المفترسة، وكذلك قيام الحيوانات الضعيفة جداً والتي تمتلك أجساداً رقـيقة وغـــير قوية بالحفاظ على أنفسها بطرقها الخاصة بها... كل هذا أدى إلى الحفـــاظ على التوازن البيئي من الأمس حتى اليوم. وكل هذه مسائل قررها العلم ولاحظها، وتعد ضربات قوية على رأس الانتخاب الطبيعي.

ثم إن علم المتحجرات (البالانتولوجيا) يقرر -بنقيض نظرية التطور- أن الأحياء البدائـــية كالأحـــياء وحيدة الخلية عاشت مع الأحياء المعقدة التركيب كالضفادع والزواحف والثدييات.

فمـــثلاً زعم التطوريون أن Neoplina عاش قبل ٣٠٠-٤٠٠ مليون سنة وأنه انقـــرض بسبب الانتخاب الطبيعي، وأن Coelacant عاش قبل سبعين مليون سنة ثم انقـــرض، وأن Crinoid عاش قبل ٥٦٥ مليون سنة ثم انقرض، وأن Limulus عـــاش قبل ٢٢٥ مليون سنة ثم انقرض، وأن Gunt Flint عاش قبل مليوني سنة ثم انقـــرض. ومـــن الممكن طبعاً عدّ المئات من هذه الأحياء التي زعم التطوريون أنها انقرضت قبل ملايين السنين. ولكن تبين أنها جميعا تعيش حالياً وأنها تشبه أجدادها تمـــام الشـــبه دون أي تغـــيير. لذا فهي شواهد على أن نظرية التطور لا تملك أي مصداقية لا في الأرض ولا في السماء.

والخلاصـــة أن الانـــتخاب الطبيعي -مثله في ذلك مثل ظاهرة التكيف- الذي كـــثيراً ما يُستند إليه من قبل التطوريين ليس إلا فرضية ضعيفة، وواهنة، ولا أساس لها من الصحة. فالمشاهدات العلمية لا ترينا -كما يظن الفكر التطوري- قيام البيئة أو الظـــروف المناخية برمي الأحياء الضعيفة خارج النوع، ولا قيام الأحياء القوية

بامتلاك حق الحياة وإبادة الضعفاء. لذا فالأصوات المنعكسة في سماء الوجود ليست عبارة عن جلجلة أصوات الأقوياء، وأنين أصوات الضعفاء وهي تموت. ومع أننا يمكن العثور على أمثلة من هذا الأمر في التاريخ الإنساني من حين لآخر، إلا أنه عندما يسود الحق نرى ظواهر الرحمة والشفقة من الأغنياء نحو الفقراء والضعفاء، ونرى الشكر من الفقراء للأغنياء. هكذا كان ديدن التاريخ حتى يومنا الحالي.

المادية، ومزاعم المصادفة والظهور التلقائي

نجـــد في أساس نظرية التطور مزاعم الظهور التلقائي للوجود نتيجة المصادفات. كـــان لامـــارك -الذي يعد أب نظرية التطور قبل دارون- يسند التطور إلى الله. وكان يرى في التطور قابلية أعطاها الله تعالى للأشياء وللطبيعة. لذا كان من أنصار الـــتطور الخلاق. بينما نرى في المقابل أن دارون أسند أساس الوجود إلى المادة وإلى الذرات وإلى الروح الخلاقة الموجودة فيها. لذا يعد دارون -بوجه من الوجوه- من أنصـــار "وحـــدة الوجود". أما الذين جاءوا من بعده فقد ربطوا الوجود كله تماماً بالمـــادة، فانحـــرفوا إلى المادية وإلى الإلحاد بشكل كلي، واختاروا استعمال نظرية التطور كسلاح وكواسطة لإنكار الله.

والذيـــن يناصـــرون نظـــرية التطور اليوم في عالمنا هم الملحدون من أصحاب الفلســـفة المادية. فهؤلاء يؤمنون بأزلية المادة. ولكم أن تتصوروا مقدار هذا الجهل المعلـــن باســـم العلم عندما ترى بأن هذا الوجود الذي يستلزم علماً لانهائياً وقدرة وإرادة وحـــياة لاينســـب الى صاحب هذا العلم اللانهائي والقدرة والإرادة والحياة باسم المادة الخالية من الحياة ومن الشعور ومن العلم والقدرة والقوة، والتي لم يتفق العـــلماء بعد على تعريفها ولا على ماهيتها، والتي تتحول في يد الإنسان من شكل إلى شكل، وأعطوا لهذه المادة العاجزة موقع الخالق.

وأنـــا عاجز عن وصف الألم الذي أحسه عندما أفكر بخالقي ومعبودي -الذي أرتـــبط بـــه بكل روحي وكياني- فأجدهم يقرنونه بالمادة، علماً بأن العلم وكرامته والفكر الموضوعي لا يوجب هذا مطلقاً. لأن إسباغ صفة الأزلية والخلق إلى المادة -حاشـــا لله- يعـــني الـــتزام الطرف المعارض والمخالف، وهذا لا يليق بالفكر العلمي

والموضـــوعي. ثم إن إنكـــار الله تعالى –حاشا ألف ألف مرة– وقبول عدم وجوده يكون قبولاً للنفي، واثبات هذا يرجع إلى الشخص الثاني. بينما لا يمكن إثبات النفي.

لـــذا لا يمكـــن مطلقاً إنكار وجود الله تعالى، ويبقى هذا زعماً دون أي دليل. وفي مقـــابل عدم وجود أي دليل ينفي وجوده تعالى، هناك أدلة لا تعد ولا تحصى عـــلى وجوده. ولا يمكن عدم رؤية هذه الأدلة إلا إن قام الشخص بإنكار وجود نفســـه وإنكار وجود الكون كما فعل السوفسطائيون. وهذا وهم واضح يوجب التخـــلي عن العقل وعن الحياة ومغالطة بينة ولا شيء غيرهما. إن مجرد ادعاء هذا الوهم والدفاع عنه والتزامه يكفي برهاناً على الوجود.

ولكـــن على الرغم من كل هذه الحقائق الجلية نجد أن العديد من الناس فقدوا إيمانهم أو ساورتهم الشكوك حول الكثير من الحقائق التي كانوا يؤمنون بها. ونظراً لاســـتخدام نظـــرية الـــتطور في هذا السبيل ولهذا الغرض رأينا في سبيل ردّ نظرية الـــتطور ونقضها إثبات أن المادة ليست أزلية وليست خالقة. ولكي نقوم بهذا كان علينـــا أن نتـــناول باختصار الزعم القائل أن الوجود بأكمله يستند إلى المادة، وهو أجهل زعم طوال التاريخ.

نـــود أولاً أن نذكّر بأن التطوريين –سواء شعروا بهذا أم لم يشعروا– يتوهمون مكانـــاً لانهائياً. لأن إسباغ صفة الأزلية على المادة، وسحب بداية التطور إلى زمن غـــير معلوم ضمن هذه الأزلية، يعني إسباغ صفة الأزلية على المكان، لأنه لا يمكن التحدث عن الزمان وعن المكان بشكل منفصل، لارتباط أحدهما بالآخر.

إن الـــزمن يملـــك وجوداً اعتبارياً (اسمياً)، والمكان هو الذي يجعل الزمان بعداً للأشـــياء وللحوادث. بدون المكان لا يكون للزمان وجود. أما ما نطلق عليه اسم المكان فهو عبارة عن عالم المادة، أي عالم الذرات. لذا فعندما تتم البرهنة على عدم

أزلية المادة، يظهر أمامنا عدم أزلية المكان والزمان. وأي شيء لا يملك صفة الأزلية لا يمكن أن يكون خالقاً ولا أن يظهر للوجود بنفسه تلقائياً.

ثم إن القانون الثاني للديناميكية الحرارية (الترموديناميك Thermodyn) الذي أصبح معروفاً من قبل الكثيرين ينفي أزلية المادة. إن القانون الأوّل للديناميكية الحرارية هو حول حفظ الطاقة. أما القانون الثاني فهو قانون كارنوت المشهور. وحسب هذا القانون فإن الجسم الحار يبعث الحرارة حواليه حتى يأتي يوم تنتهي فيه هذه الحرارة.

كما أن مصادر الضوء والطاقة تبعث الضوء والطاقة حواليها حتى يأتي يوم تتساوى فيه الطاقة في جميع أرجاء الكون، فيقف انتقال الطاقة. وهذا وإن كان لا يعني فناء الطاقة، إلا أنه يعني الموت ويعني زوال الزيادة والنقصان في الكون. وضع كارنوت هذا القانون نتيجة مشاهداته وتجاربه عندما كان يغلي الماء في بيته، وعندما كان يلاحظ حرارة مدفأته. ثم تم توسيع تجاربه هذه وربطها من قبل كبار العلماء بنظام معين، ويتم اليوم تدريس وتعليم هذا القانون باسمه.

لا يمكن اليوم ذكر شيء أكيد حول تأثير الديناميكية الحرارية الكلي في الكون. ولكن يمكن القول بأن الكون ليس كتلة واحدة صلدة، بل يتألف من أجزاء. وما يجري على جزء منه يجري على الكل فيه. وقد دلّت التجارب والمشاهدات في هذا الميدان بأنه إن لم تقم القيامة قبله بسبب من الأسباب، فإن القيامة الناتجة عن قانون الترموديناميك (الديناميكية الحرارية) ستقع حتماً، أي ستنفد الطاقة في الكون وينهار النظام sys فيه.[1] وقد يتساءل البعض عن العلاقة الموجودة بين عدم

---

١. يقول العلماء إن هذا القانون يشير إلى أن الحرارة تنتقل من الجسم الحار إلى الجسم البارد، وأن هذا الانتقال يستمر حتى تتساوى درجة الحرارة بين الجسمين. فإن طبقنا هذا القانون على الكون نرى أن النجوم ستستمر في نشر الضوء والحرارة حتى تتساوى الحرارة في أرجاء الكون، مما يؤدي إلى توقف انتقال الحرارة والطاقة. وهذا يعني موت الكون حرارياً. (المترجم)

أزلية المادة وبين هذه القيامة الثرموديناميكية، أو ما الطعنة التي توجهها هذه العلاقة إلى أزلية المادة والزمن؟

لنبين أولاً بأن الظاهر هو أن الذين يقولون بأزلية المادة لا يعرفون معنى الأزلية. فلـــو وضعت أصفاراً بعدد رمال جميع الصحارى في الأرض أمام الرقم واحد، لعدّ هـــذا الرقم الهائل صفراً بالنسبة للأزل. وكذلك الأمر بالنسبة لأكبر عدد يمكن أن يتفتق عنه ذهن الإنسان أو يستطيع التفكير فيه أو تخيله فهو أيضاً يعد صفراً بالنسبة لمفهوم الأزل. لأن الأزل يعني اللانهاية. والشيء الأزلي يتصف بما يأتي:

لا يكـــون مركباً، ولا يتركب. بل يكون بسيطاً وغير قابل للتجزئة. لا يتغير ابـــداً، ولا يمكن التدخل فيه. يكون خارج الزمان والمكان، أي يكون خارج كل حـــركة متعلقة بالزمان والمكان. يكون أبدياً، لأنه في جميع الأحوال خارج الزمان. ولكـــون الأزل والأبـــد خـــارج الزمان، فهما يلتقيان في نقطة واحدة بوجه من الوجوه. ولا توجد أي خاصية من هذه الخواص في المادة. فالمادة متغيرة، ولا يمكن تصـــورها خـــارج نطـــاق الطاقـــة حسب ما يقرره قانون الديناميكية الحرارية (الثيرموديناميـــك). كما ألها صالحة لكل نوع من أنواع التراكيب. ثم الها موجودة تحت قيد الزمان والمكان.

وفي مقابل هذا نرى أن علماء الكلام يقولون في حق الله تعالى: (ما ثبت قِدمُه امتنع عَدَمُه)، وهذا يشير إلى أن المادة لا يمكن أن تكون منشأً للوجود، كما يشير إلى صفات الذات العلوية التي يجب إسناد الوجود إليها.

يـــتألف المكان بالمقياس الصغير من الذرات، وبالمقياس الكبير من النجوم. وفي شمسنا -التي هي نجم من هذه النجوم- يتحول ٥٦٤ مليون طن من الهيدروجين إلى هيلـــيوم في كـــل ثانـــية، وهكذا تنشر حواليها طاقة كبيرة بشكل ضوء وملايين السـعرات من الحرارة. ويصل جزء من هذه الطاقة إلى الأرض وإلى جميع المنظومة

الشمســـية. ويـــتألف الكون من أمثال هذه الشموس. وفي يوم من الأيام ستنفجر شمسنا بقوة لامركزية انفجاراً مرعباً جداً عندما ينفد وقودها، تعقّبه حركة انكماش مركزية وتقلص. أي لا تستطيع بعده مد أسباب الحياة للأرض، أي ستكون القيامة قد قامت.

وبمـــا أن الكون يتالف من أمثال هذه الشموس كلبنات أساسية له، فلا يمكن تصور أزلية هذه الشموس التي تتجه الطاقة فيها إلى النفاد. لأن الشيء الأزلي -كما ذكـــرنا سابقاً- لا يكون مركباً، لأنه لا يدخل تحت دائرة الزمان والمكان، لذا لا يتعرض إلى النقصان وإلى النفاد، ولا يحصل عنده أي تغير مهما كان ضئيلاً.

بيـــنما نرى أن المادة والعالم المادي في تغير مستمر، وفي تغير دائم من حال إلى حال، ويتعرض إلى الانحلال والتفكك ثم التكون من جديد، أو تكون هي سبباً في التفكـــيك والتغـــيير. لذا فهناك بداية للمادة ونهاية لها، وهي محكومة بقيود الزمان والمكـــان. وكـــل ادّعاء خارج هذا يعدّ ادعاء وفرضية لا نصيب لها من الصحة. ويعـــترف دارون نفسه بعجزه في هذا الموضوع وضعفه فيقول: (نظراً لأنني لم أكن موجوداً في العهود التي عاشت فيها هذه الأحياء شعرت بضرورة تقوية هذه المسألة ببعض الفرضيات).

والفرضيات، وإن كانت تستند إلى بعض المعلومات الأولية تعني آراء ووجهات نظـــر لم تـــتم تجربتها. فكما قدم دارون فرضيته هذه يمكن لي أن أقدم فرضية بأن إنساناً استطاع -بفضل حركة أرضية ما- أن يقفز عشرة آلاف متر و لم يحدث له شيء. فهذه أيضاً فرضية، فإن اعترضت عليّ وقلت بأن الإنسان الذي يقفز عشرة آلاف مـــتر ســـيموت مـــن قلة الأوكسجين قمت بتقوية فرضيتي فأقول: "أنتم تـــتحدثون عـــن الشروط الحالية، ولكن الشروط كانت مختلفة في عهد من عهود الأرض، لذا تيسر وقوع هذا الأمر". فإن كانت فرضيتي هذه غير علمية ومجرد زعم

فلا يوجد هناك فرق في هذا الصدد في ادعاءات نظرية دارون أو في الداروينية. إن التطور فرضية تقوم بتكذيب جميع القوانين السارية الأخرى في الكون وفي الحياة، وتقوم بملء جميع الثغرات والفجوات الموجودة فيها بفرضيات أخرى. لذا فلا تحمل قيمة أخرى خارج هذا النطاق.

هل المصادفة ممكنة ؟ وهل تستطيع تفسير الوجود ؟

إن الذيـــن يحاولون إظهار نظرية التطور وكأنها حقيقة علمية ويحاولون إبقاءها واقفـــة عـــلى قدميها يستندون إلى تجربة ميللر ويذكرون بأن الظروف التي كانت سائدة في الأرض في عهد من العهود السابقة أدّت إلى تراكم البروتينات في البحار، وأنه نتيجة للتفاعلات الكيميائية التي حدثت ظهرت الأحماض الأمينية. وقد حدثت كل هذه الأمور تلقائياً كما يزعمون.

ولكن العالم الروسي أوبرن اعترف بعد عشرين سنة من المحاولات في المختبرات الكيميائـــية الحديثة لصنع خلية حية قائلاً: (من المستحيل صنع خلية حية من المواد الكيميائية حتى في أرقى المختبرات الكيميائية وأكملها). ولكن التطوريين لا يعيرون اهتماماً لهذا الاعتراف. بينما نعلم بأن العمر الحالي للأرض لا يكفي لصنع حامض أميني واحد، بل حتى جزيئة بروتين واحدة عن طريق المصادفة العشوائية، بل يحتاج إلى أضعاف أضعاف هذا العمر.

فـــإذا لم يكـــن العمـــر الحالي للأرض كافياً لتشكيل حامض أميني واحد ولا لتشـــكيل جزيئة بروتين واحدة عن طريق المصادفة فكيف تيسر إذن ظهور الخلية الحية؟ وكيف كان عمر الأرض كافيا لهذا؟

إن وجـــود الحياة على سطح الأرض مرتبط بتوازنات عديدة وشروط دقيقة. أولاً يجـــب توفر جميع الشروط اللازمة للحياة في سطح الأرض، فنحن نعيش على كـــرة أرضية تبعد عن الشمس ١٤٩,٥ مليون كم. وحتى هذه المسافة لا يمكن أن تكـــون نتيجة مصادفة أبداً. ومحور الأرض يميل بمقدار ٢٣,٥ درجة. ومقدار الميل

هـــذا -الذي يشكل أهم عامل في تشكيل الفصول- لا يمكن أبداً أن يكون نتيجة مصـــادفة. كمـــا أن الغلاف الجوي المحيط بكرتنا الأرضية يتألف من ٢١ % من الأوكسجين من مجموع الغازات المكونة لهذا الغلاف، ولا يمكن تفسير وجود هذه النسبة المثالية بالمصادفة أيضاً.

ونحـــن نعرف من حسابات الاحتمالات أنه إن رمى شخص أعمى إبرة على الأرض فإن احتمال أن تدخل الإبرة الثانية التي سيرميها في ثقب الإبرة الأولى يبلغ ١%. ولكن علم الرياضيات لم يكتشف بعد نسبة الاحتمال في أن تدخل ١٠٠٠ إبرة مرمية على الأرض الواحدة منها في ثقب السابقة بالتتابع. بينما نسبة الاحتمال في بلوغ الكون والكرة الأرضية وضعهما الحالي عن طريق المصادفات أقل بكثير من الاحـــتمال الســـابق. إن إعطاء أي احتمال لهذا الأمر ليس فقط يعد خارجاً عن السلوك العلمي فحسب، بل إن القول بهذا الاحتمال ينقض العقل السليم ويعاديه. يقول "جيمس جينز" حول هذا الموضوع:

(لكي تأخذ الأرض وضعها الحالي عن طريق المصادفات فعليك أن تأخذ جميع رمـــال الكرة الأرضية في يدك ثم تنثرها. إن احتمال أن تكون ذرة من هذه الرمال الشمس، والأخرى الأرض والأخريات الأشياء الموجودة على الأرض كل منها في موضعها الصحيح، هي نفس نسبة الاحتمال في أن تصل الأرض إلى وضعها الحالي عن طريق المصادفات).

ولا ينـــتهي موضـــوع ظهور الحياة على الأرض، ووصولها إلى وضعها الحالي، بكـــون الأرض عـــلى بعد ١٤٩,٥ مليون كم من الشمس. فهناك مسألة كثافة الغـــلاف الجوي، وتصفيته للإشعاعات الشمسية والكونية، ومسألة إحراقه للشهب

والنيازك، ومسألة سمك القشرة الأرضية زيادة ونقصاناً من ناحية ابتلاعها الغازات[1] ومسألة امتصاص البحار للغازات السامة مسائل أخرى.

وكذلـــك وجود التعاون بين النباتات والحيوانات، فالنباتات تطلق ثاني أكسيد الكربون في الليل، وتستهلكه في النهار. كما أن هناك القيام بعملية التمثيل الضوئي الضروري للأثمار، ووجود برنامج في بذرة التفاح يساعد على تحول هذه البذرة إلى تفـــاح وإلى نمو البذرة وتحولها إلى شجرة، وإلى ظهور الأوراق وتفتح البراعم عن الـــزهور مكوناً الثمرة. وإلى جانب هذا نرى وجود تعاون كامل بين هذه البذرة وبين الشمس والماء والهواء.

والخلاصـــة أن الكرة الأرضية والحياة الموجودة عليها تتطلب آلية مذهلة وعلماً وإرادة وشـــعوراً وقدرة بحيث يستحيل هذا على المصادفات العشوائية، وعلى المادة الصماء والعمياء والخالية من الحياة ومن الشعور ومن العلم. إن إسناد هذا الأمر إلى المصـــادفة أو إلى المـــادة أو إلى أي كائـــنات أخرى يعد إنكاراً للعقل وللإنصاف وابتعاداً عنهما.

وكمـــثال آخر: لندخل إلى صيدلية أو إلى مصنع للأدوية طلباً لدواء معين. نجد أن جمـــيع الأدوية -ومنها الدواء المطلوب من قبلنا- موجودة على الأرفف، وأن جميع المواد اللازمة لهذه الأدوية موجودة داخل القناني. فهل هناك عاقل يتصور أن في الإمكان أن تهب ريح فتسيل هذه المواد وتكون الأدوية المطلوبة بالمقادير الدقيقة المطلوبـــة لكـــل دواء؟ أو أن يحدث هذا باي تاثير خارجي أو من قبل هذه المواد نفســـها؟ علما بأن المواد المطلوبة موجودة في مثالنا هذا ومتوفرة وموضوعة داخل

١. يشير المؤلف إلى أن سمك قشرة الأرض سمك مناسب جداً فلو زاد سمك القشرة الأرضية عن الموجود حالياً لامتصت نسبة كبيرة من الاكسجين مما يحول دون ظهور الحياة على الأرض. ولو قل هذا السمك لزادت نسبة الزلازل وشدتها. (المترجم)

القـــناني. وبما أن المواد موجودة فما على المصادفة سوى معرفة الدواء المطلوب من قبلـــنا، أو فهمهـــا لكلامـــنا ولطلبنا، ثم القيام بإسقاط هذه القناني وسكب المواد الموجودة فيها وجمعها بالمقادير الصحيحة لتكوين الدواء المطلوب.

بينما إن نسبنا الوجود إلى المصادفات، أو قلنا إنه تشكل من نفسه، أو أسندناه إلى الطبـــيعة أو إلى المادة، فإنه لكي يتكون هذا الدواء من مختلف المواد من نفسه، يجب على المواد العديدة المكونة له أن تظهر إما تلقائياً أو من قبل الطبيعة أو بتوجيه مـــن المادة. وعلاوة على هذا يجب وجود إنسان -أي صاحب حياة وشعور وعلم وإرادة وقـــوة- يقـــوم بوضع هذه المواد في القناني ويرتبها فوق الرفوف، ويصنع المصـــانع. ويجب أن يظهر هذا الإنسان من قبل الطبيعة أو المادة أو المصادفات أو يظهر تلقائياً إلى مسرح الحياة.

ونتســـاءل: أي صاحب عقل يمكن أن يقبل إمكانية حدوث كل هذه الأمور؟ ولكن كم من المؤسف أن نرى أن الذين يسندون الوجود إلى التطور أو إلى الطبيعة أو إلى المصـــادفات يؤمـــنون بمثل هذه الخرافات في سبيل شيء واحد وهو إنكار وجود الله.

قد يرد الاعتراض الآتي: إن العلم لا يستند إلى العقيدة أو الإيمان، بل يستند إلى المعطيات الموضوعية لكي يهيء المستقبل وينتج التكنولوجيا. ونحن نقول: حسناً!.. إن الوجـــود يوجـــب بشكل واضح وجوب وجود شعور وإرادة وتخطيط وعلم وعناية وقدرة. وكل هذا يشير إلى أدلّة لا حصر لها حول وجود الله تعالى، لذا فأي كســـب نكســـبه للعلم إن ربطنا منشأ الوجود بالمادة أو بالطبيعة أو بالمصادفة أو بالظهور التلقائي أو بغيرها من الخرافات؟ واي خسارة للعلم إن قبلنا بحقيقة وجود الله، ثم استمررنا بجهودنا العلمية؟

وفي الحقــيقة فــإن ذرة واحدة، وخلية واحدة فقط -دعك من الكون كله- تكفــي دلــيلاً عــلى وجود الله تعالى المتصف بالقدرة المطلقة وبالإرادة وبالعلم اللانهائي. لأن أجزاء الكون متداخلة بعضها ببعض -مثل جسم الإنسان- تداخلاً كــبيراً وتعرض أمام الأنظار وحدة متكاملة تمام التكامل، بحيث إن من لا يستطيع خلــق الكون لا يستطيع خلق ذرة واحدة. والعلماء الحقيقيون يرون هذا ويعترفون بــه. وقد سرد إنعام الله -وهو شخص باكستاني- إحدى ذكرياته مع العالم سير جيمس جينز الذي أقدره كثيرا فقال:

(كنــت في أمريكا، وكنت كثيراً ما ألتقي مع سير جيمس جينــز. وفي أحد الأيام كنت في الشارع فإذا بالمطر يهطل غزيراً، ورأيت الأستاذ جيمس يهرع نحو الكنيســة وشمســيته مطويــة في إبطه. توجهت حالاً نحوه بصمت، وقلت: "يا أســتاذي!... الظاهــر أنكــم مشغولون ذهنياً، لأن المطر يهطل وشمسيتك تحت إبطــك". رجــع إلى نفسه وكأنه أفاق من نوم. كان بصره شاخصاً وكأنه يرمي ببصــره إلى أفق بعيد... كانت نظرته عميقة. وعلى إثر كلامي فتح شمسيته. سرنا معاً. وعندما علمت أنه ذاهب إلى الكنيسة قلت له: "كيف تذهب إلى الكنيسة مع أن الكثيرين كلما توغلوا في العلم ابتعدوا عن الكنيسة."

كــان مشحوناً جداً، وزاد كلامي من ضرام أحاسيسه. لم يجبني على سؤالي، ولكنه قال: "يا إنعام الله! تعال غداً إلى بيتي لتشرب معي الشاي ونتحدث".

في اليوم الثاني توجهت إلى بيته وضغطت على جرس الباب، قابلني صبي نوراني الوجــه وأخبرني بأن والده هيأ الشاي في غرفته وهو ينتظرني. عندما دخلت عالمه الداخــلي ذرفــت عيناي دموع شفقة كانت قد تجمعت كسحاب تنتظر باعثاً أو عذراً للانهمار... جلست بجانبه، وبدأ يتحدث.

تحدث عن خلق الأرض وكيف جُعلت صالحة للحياة. كان عندما يتحدث عن الإجــراءات الإلهية ينفعل ويكاد أن يغيب عن نفسه. تحدث عن الغيوم السديمية، وكــيف أنهــا تطيع إرادة معينة في هذا الكون الواسع، وتحدث عن توسع المكان، وتحــدث عــن الإجراءات الإلهية في جميع هذه الأمور. كان يتحدث أحياناً عن حقــائق العالم الكبير (الكون)، وأحيانا عن العالم الصغير (الذرة) وكأنه يفسر قوله تعالى:

﴿سَــنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِــرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصــلت: ٥٣). وبلغ منه التأثر حيناً مبلغاً كبيراً فقـــال: "يا إنعام الله! إنني مندهش: كيف يتسنى للإنسان أن يطلع على هذا الكون الواســع الشاســع ويلم بقوانينه ثم لا يؤمن بالله؟!. إنني مندهش". كانت اللحظة المناســبة قد حانت تماماً، فقلت لــه: يا استاذي أتسمح لي؟ قال: تفضل. قلت: "هــناك آية في القرآن، يرد فيها قول الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِــبَادِهِ الْعُلَمَــاءُ﴾ (فاطر: ٢٨). عند ذلك بلغ منه التأثر غايته، وقال: "أهذا هو ما يقوله محمد؟ إن كان هذا هو ما يقوله فاشهد يا إنعام الله أنه رسول الله".

أرجــو أن تــتفكروا لحظة! هذا الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات وأعقلها وأكثرها قابلية وذكاء بينما لا يستطيع أن يرسم مربعاً مساوياً تماماً لمربع سبق وأن رسمه، بل لا يستطيع حتى رسم خط مستقيم مساو تماماً -دون استعمال آلة قياس- لخــط سبق وأن رسمه... كيف يستطيع هذا الإنسان أن يدعي بوجود أي احتمال لظهــور سلاســل الأحماض الأمينية، أو جزيئة من جزيئات البروتين أو خلية من الخلايــا، أو عضو من الأعضاء، أو كائن حي أو عضو في الجسم تلقائياً أو نتيجة المصادفات ضمن هذا التعقيد الشديد والمتداخل للأحياء؟! ثم كيف يمكن بعد هذا الادعــاء -وســط كل هذه الاستحالات المتداخلة بعضها مع البعض الآخر- بأن

سلسلة من الأحماض الأمينية أو أي كائن صغير تخيلنا ظهوره يمكن أن يتطور إلى أحياء معقدة ضمن بوتقة التطور؟!

إن أكثر المتفائلين في هذا الموضوع يرون -من زاوية الزمن- أن عمر الأرض لا يكفي لظهور سلسلة من الأحماض الأمينية. فمن حق الإنسان أن يتساءل اذن: هل تم التطور في العالم الآخر، وأنه بعد أن نضج واكتمل جاء إلى أرضنا وأعطى ثمرته؟ فإن لم يكن هذا هو ما حصل فكيف اكتسب هذا الوجود الرائع جماله الأخاذ وروعته وفخامته ودقته تاركاً وراءه الفوضى والاضطراب ومتجاوزاً له؟ وكيف استطاعت الحياة تسجيل هذا النجاح والوصول إلى مثل هذا الوجود الرائع على الرغم من وجود قانون الانتروبيا؟ وكيف ظهرت هذه الملايين من أنواع الأحياء تلقائياً إلى الوجود؟ وكيف استطاعت الأشياء تحدي القانون الثاني من الديناميكا الحرارية الذي يمنع اتجاه الأشياء من الفوضى إلى النظام، ومن البساطة إلى التعقيد وإلى الروعة الفنية؟

وهل نستطيع الإجابة على كل هذه الأسئلة إجابات متمشية مع روح العلم؟ أم نتهرب من الإجابة ونقول مثلما يقول بعضهم: "لقد حصل التطور وإن كنا لا نعرف كيف حصل، ولا حاجة هناك إلى إثبات هذا الأمر"؟! وأنا أريد أن أسألكم: هل نستطيع إذن أن نتجاوز شواهق وذرى الفن البادية في كل مخلوق من المخلوقات ببالونات المصادفة؟!

إن وجود الشفرات في أجساد الكائنات الحية اعتباراً من أصغرها إلى أكبرها منذ البداية، ووجود تخطيط رائع ومدهش في جزيئات D.N.A و A هذا التخطيط الذي يوجه وظائف الكائن الحي اعتباراً من أصغر وحدة في الكائن الحي وأبسطها إلى أعقدها، والذي يعمل بنظام رائع متبعاً سلم المسؤوليات والتخصصات وباذلاً خدماته للكائن الحي يجعل من المستحيل إيضاحه بالمصادفات.

فهــل نســتطيع أن نعــزو هذا النظام إلى قيام الذرات بالتفاهم بعضها مع البعض الآخر؟

ونحن نرى أنه حتى الحاسوب الالي (الكومبيوتر) لا يعمل إلا بعد تشفير برنامج خاص فيه من قبل المبرمج. فهل هناك أي احتمال لأن تقوم الأجزاء الصغيرة في هذا الجهاز بكل هذه الأعمال الخارقة تلقائياً ومن نفسها؟ وهل من الممكن الدفاع عن هذا باسم العلم؟. ولو فرضنا المستحيل وقلنا بإمكانية حدوث هذا في مستوى المادة فكــيف نستطيع ذكر الشيء نفسه في الأجساد المعقدة والمركبة للأحياء، وكيف نستطيع تجاوز المستحيلات العديدة في هذا الصدد؟

إن العــلم يفتح في الحقيقة أبواب الإيمان ويأخذ بيد الإنسان نحو الله. أما العلم الذي لم يستكمل أدواته و لم يصل بعد إلى كنهه، والذي طبع بطابع الغرور وبزاوية نظــر خاطئة، واتحد مع الظلم وتلبس به فإنه يقود إلى الكفر. إن الذين لم يدركوا بعدُ ماهية العلم والذين يظهرون على مسرح العلم من بابه الخلفي، والذين تأخذهم نشوة وغرور العلم ويحسبون أنهم كسبوا في السباق، يتحولون وقد أخذتهم سكرة النصــر وحولتهم إلى تمثال للغرور، لا يدركون بأنهم في جهل مكعب -كما قال ضياء كوك آلب- لأنهم لا يعلمون أنهم لا يعلمون، ويحسبون أنهم يعلمون.

الظهور التلقائي

عندما قام "شمس الدين كون آلتاي" بنقد هيجل عن حق في هذا الموضوع في كتابه "الفلسفة العليا" قال: (يتكلم هيجل عن عشرين جيل من الأحياء المتعاقبة في قاع البحر. ويورد هذا المسكين أسماءها وكأنه كان يعيش معها، ويعطي رأيه حول أشكالها).

ونظراً لعجز المنظرين لنظرية التطور في تفسير كيفية ظهور الحياة نراهم يتشبثون بالمصادفة وبالظهور التلقائي. فهم يزعمون أن الجو البدائي للأرض كان يحتوي على كميات كبيرة من الأمونيا والميثان وبخار الماء والهيدروجين، وأن هذا الخليط تفاعل مع بعضه البعض بواسطة الطاقة المنبعثة عشوائياً من البروق ومن الانفجارات البركانية، ونتجت بعض أنواع من الحوامض الأمينية عن هذه التفاعلات. وبمرور الزمن تحولت هذه الأحماض الأمينية إلى بروتينات، ثم سالت جزيئات البروتينات هذه إلى البحار. ومن ثم ظهرت الأحياء الأولى في المستنقعات بشكل ديدان بدائية.

تجارب ميللر

استعمل أنصار التطور تجارب ميللر وكأنها دليل على حدوث مثل هذه التفاعلات. بينما كل ما فعله ميللر كان عبارة عن قيام إنسان يملك علماً وشعوراً وإرادةً بتجربة الحصول على خلية حية بمساعدة أحماض أمينية قام باختيارها. كان من الضروري في هذه التجارب دوام التزويد بالطاقة المسيطر عليها لكي يظهر كائن حي (أي خلية حية) أول، ثم لكي يستمر في الحياة. والشيء الأهم هنا هو الحفاظ على الأحماض الأمينية المتشكلة من التحلل، وجمعها معاً ضمن مصيدة باردة وضعت خصوصاً لهذا الغرض.

فإن كانت هناك قابلية لدى الأحماض الأمينية للانقلاب إلى الحياة -علماً بأن الله تعالى وحده الذي يهب الاستعداد للحياة- فإن الإنسان الذي يملك المعرفة والإرادة يستطيع تحريك هذا الاستعداد وتنشيطه. ولكن الزعم بأن كل هذا يحصل نتيجة المصادفات ونتيجة الظهور التلقائي يعدّ بلا شك استهزاءً بالعقل وبالإرادة.

التغذي الذاتي والخارجي

يـزعم الـتطوريون أن الأحـياء التي ظهرت إلى الوجود تلقائياً أو عن طريق المصـادفات تستطيع تأمين الطاقة التي تحتاج إليها لإدامة حياتها من الشمس أو من التفاعلات الكيمائية. ثم إن الأميبيا كما تستطيع التغذي من بيئتها، تستطيع كذلك صـنع غذائها بنفسها. ويحاول التطوريون تقوية زعمهم هذا بفرضية "الأوتوروف" أي الـتغذي الـذاتي، أو "الهيتوتروف" أي التغذي من البيئة الخارجية. أما فرضية الـتغذي الـذاتي فلم تلق قبولاً في أيامنا الحالية. والتفاعلات الكيمياوية التي تنتج الغذاء "كالتمثيل الضوئي" أمر معقد غاية التعقيد. وعندما ندقق التفاعلات المعقدة التي تقوم بها النباتات الخضراء التي تملك قابلية التمثيل الضوئي، وكذلك الانزيمات الـتي تلعب دوراً مهماً في هذه التفاعلات، نعرف من يحتاج لمن، وإلى أين يجب أن يسـير كل شيء من هذه الأشياء. أي ندرك أن كل شيء يسير وفق منهج دقيق ومتكامل.

لقـد وقـع التطوريون في ورطة كبيرة عندما ادّعوا بأن مثل هذا النظام الدقيق والـرائع ظهر فجأة إلى الوجود عند بداية ظهور الحياة على وجه الأرض، لأن مثل هـذا الادّعاء يناقض ادّعاء التطور. لأن مثل هذه التفاعلات المعقدة والمتشابكة لا يمكـن أن تصدر إلا من قبل آلية معقدة. ومن المفروض أن تظهر هذه الآلية الدقيقة والمعقـدة في الظـروف الأولية لظهور الحياة لكي يحصل الكائن الحي على الغذاء الضـروري له، بينما يتناقض هذا تماماً مع أساس الداروينية. لأن الظهور الفجائي لآلـية معقدة جداً مستحيل. لأن التكامل أيْ النظرية التطورية تقضي بظهور هذه الآلـية بشـكل تدريجي وبطيء. والأبحاث التي أجريت أبانت -دع عنك ظهور

النـــباتات المالكـــة لآلية معقدة مثل التمثيل الضوئي- بأن مئات الآلاف من أنواع الحيوانات الموجودة حالياً كانت موجودة في أكثر العهود قدماً التي استطاعت هذه الأبحاث التوغل فيها، ولم يشاهد فيها أي حادثة تطورية. أي أن التطور يحتاج إلى زمـــن طويـــل لا نســـتطيع تصـــور طوله. لذا لم يكن عمر الأرض كافياً لظهور الحيوانات والنباتات وتطورهما حتى الوصول إلى ظهور الآلية التي تقوم بصنع الغذاء بنفسها.

أمـــا حســـب فرضـــية "هتروتروف" فإن الغذاء غير جاهز للكائن الحي، ولا يستطيع الكائن الحي صنعه بنفسه، بل يأخذه من الخارج. بينما يحتاج هذا أيضاً - مثله في هذا مثل الأوتوروف- إلى آلية تستطيع إنتاج تفاعلات معقدة. لأن الغذاء الـــذي سيأخذه أيّ حي من الأحياء يجب أن يكون مادة عضوية صنعت من قبل حـــي آخر. لذا كان كل حي -ولنقل الحي الأوّل الذي ظهر على وجه الأرض- يحـــتاج إلى وجود حي آخر قبله. وهذا يؤدي إلى تسلسل، أي إلى سلسلة متراجعة إلى الخلف على الدوام مما يقتضي أزلية الأحياء. وهذا أمر باطل ومستحيل.

قوانين الوجود

هـــذا بالإضافة إلى أننا نشاهد في ظهور جميع الأشياء في الكون سواءً في عالم الأحـــياء أو في عـــالم الجماد شعوراً وعلماً وترجيحاً، أي إرادة. وبينما نرى عبيد الطبـــيعة والعلماء الماديين يعزون هذا الوجود إلى الظهور التلقائي أو إلى المصادفات العمـــياء نراهم من جهة أخرى يؤمنون بالقوانين. بينما تقوم القوانين بردّ الظهور الـــتلقائي وردّ المصادفة. إذن فالوجود لابد أن يكون أثراً لصاحب علم. ولا تملك المادة الخالية من الحياة ومن الشعور قوانين شاملة للكون وشاملة للحياة وللشعور. إن وجـــود القوانين يقتضي وجود واضع لهذه القوانين. إن عدّ القوانين -دون أخذ واضـــع هذه القوانين بنظر الاعتبار- أساساً للوجود يشبه المثال الآتي الذي ضربه أحد المفكرين المرموقين:

"دخـــل رجل أحمق إلى قصر كبير، فرأى أن هذا القصر المنيف قد زين وأثث بـــأفخم أثـــاث وأجملـــه، فهناك الطنف والمناضد والكراسي والفرش والمزهريات والـــورود واللوحـــات الفنـــية والمدافئ، وما يحتاجه المطبخ من أشياء وأغراض... والخلاصـــة وجـــد كل شيء في مكانه الصحيح. وبينما كان هذا الرجل الأحمق يـــتجول في أرجاء القصر ويفكر بمن قام بكل هذا التأثيث والتزيين، ولكنه لم يجد أحـــداً، وإذا بـــه يرى كتاباً فوق منضدة. كان الكتاب يحتوي على برنامج تأثيث القصر. قال الأحمق: لقد وجدت ما كنت أبحث عنه... هذا الكتاب هو الذي قام بتأثيث هذا القصر."

وهـــل هناك من أحد لا يطلق صفة الجنون على شخص يسند تأثيث قصر من القصـــور إلى كـــتاب تعريف الأثاث، أو يسند صنع أي ماكنة أو جهاز إلى نشرة تعريف الجهاز أو الماكنة؟

وبينما هذه هي الحقيقة بأوضح شكل، فإنني لا أفهم على الإطلاق كيف يمكن لشخص تخصص بعد التخرج من الجامعة في الفيزياء أو في البيولوجيا (علم الأحياء) أو في الكيمـــياء، أو في الكيمياء الحيوية وأصبح استاذاً ان يسند هذا الكون الرائع ومـــا يحتويه من زينة، وما يبدو فيه من تصميم دقيق، ووجود كل شيء في المكان والموقع الصحيح، وما يحتويه من تناسق وتناغم أصيل لا يفسد ولا يهتز ولا يحتاج لأي تعمير أو اصلاح... ان يسند كل هذه الروعة إلى المادة الخالية من الحياة ومن العلم ومن الشعور والإرادة، أو إلى بعض المفاهيم التي يطلق عليها اسم القوانين التي تم اكتشافها عند دراسة هذا الوجود وكيفية ظهوره وكيفية عمله. أو ان يسنده إلى المصادفات التي هي مفهوم مجرد، أو يعزوه إلى الظهور التلقائي.

اصطفاف البروتينات والأحماض الأمينية

يقــول العــالم السويدي المشهور "جارلس ايجون كوي Charles Eugenie Guye":

"تــتألف جزيئة البروتين من ٤٠,٠٠٠ ذرة. لذا فنسبة احتمال ظهور جزيئة بروتين واحدة عن طريق المصادفات هو احتمال واحد من احتمالات كبيرة وهائلة جداً تبلغ ١٠ ^٦٠". [1] أترون؟... علماً بانه عند الأحياء لا نجد جزيئة بروتين واحدة، بــل سلاسل من البروتينات. ويقول "الدكتور لوكونت دي نوي Dr. Lecomte de Nouy" عن احتمال ظهور سلسلة واحدة من البروتينات عن طريق المصادفة:

"لا يمكــن التعــبير عن ظهور سلسلة من البروتينات عن طريق المصادفات إلا باحتمال واحد ضمن رقم هائل من الاحتمالات يبلغ رقم ١٠ أس ٢٤٣. [2] ولكن الإنســان لا يتألف من سلسلة واحدة من البروتينات، لأن الإنسان يتألف من ٦٠ تريلــيون خلية. وترتبط هذه الخلايا ببعضها بروابط قوية بحيث إن فساد عضو أو نظام واحد لهذه الخلايا قد يؤدي إلى موت الإنسان. وحياة الإنسان مستمرة ضمن اســتمرار هذه العلاقات الحساسة جداً والمتكاملة جداً. وعندما يتأمل الإنسان هذا الــنظام الدقــيق الــرائع لا يملك إلا أن يهتف من قلبه: "سبحانك!... ما أعظم شأنك!!"

---

١. أي ان نسبة الاحتمال = ١/ ١٠ ^٦٠ ويساوي الرقم واحد مقسوماً على عدد هائل هو رقم واحد وأمامه ستون صفراً. (المترجم)

٢. أي ان نسبة الاحتمال = ١/ ١٠ ^٢٣٤ أي العدد واحد مقسوماً على عدد عشرة أس ٢٣٤. ومن المعروف في علم الرياضيات ان نسبة ١/ ١٠ ^٥٠ (أي العدد واحد مقسوماً على عشرة أس خمسين) تساوي الصفر في الواقع لضآلته وصغره. (المترجم)

قبل تناول البروتينات ودورها في الكائنات الحية تأتي الأحماض الأمينية أولاً. تنتظم هذه الأحماض الأمينية في سلاسل معينة مشكلة البروتينات. ولكن البروتينات تحتاج إلى أشياء أخرى لتشكيل خلية حية. كل كائن حي عبارة عن نظام "System" من الجزيئات المتجمعة ضمن تصميم معين. ولكي يستمر في الحياة عليه ان يتغذى ويحصل على طاقة.

وعلم البيولوجيا المناصر للتطور يزعم بأن الكائن الحي الأوّل حصل على هذه الطاقة من الشمس، كما استفاد من البروق ومن الأشعة فوق البنفسجية. بينما نعرف بأن الكائن في أثناء تشكله وبعده يحتاج للتزود بنسبة معينة من الطاقة بشكل منتظم ودون انقطاع لكي يستمر في الحياة. بينما أشعة الشمس تكون موجودة في النهار فقط إن لم تكن هناك غيوم، ولا توجد في الليل، ثم ان جزءً كبيراً من السنة يكون شتاءً، لذا لا تكون الطاقة الآتية من الشمس منتظمة وبالمقدار نفسه. أما البروق فليست منتظمة في أي وقت. فهي تحدث مرة ثم تغيب. وعندما تبرق البروق تحرق وتهدم. وحتى لو افترضنا وجود نصيب من الصحة في هذا الادّعاء فكيف نفسر تنظيم العلاقة المزعومة بين أشعة الشمس والأشعة فوق البنفسجية والبروق وبين ظهور الكائنات الحية؟

التغذي والنمو

لا يقتصـــر وجـــود المشـــاكل في موضوع ظهور الكائن الحي للوجود، بل إن موضوع تغذيه كذلك يحف به الكثير من المشاكل. إذ يجب على الكائن الحي تناول الغذاء لكي ينمو، ولكي يركب مواداً جديدة ضرورية، ليستطيع الاستمرار في البقاء حـــياً. وحسب ادّعاء التطور فإن الكائن الذي ظهر عن طريق التطور يضطر للتغذي عـــلى طريقة تغذي الاميبيا لكونه لا يملك بعد جهاز هضم ولا جهاز تنفس. ولكن حـــتى هذا مستحيل لسببين: الأوّل هو كثافة المحيط حواليه أي كثافة البيئة، أي يجب تعـــيير وضـــبط التوازن بين كثافة السائل الذي يوجد فيه الكائن الحي، وبين كثافة السائل الموجود داخل خلية الكائن الحي. وهذه مشكلة مهمة ودقيقة.

نحـــن نعـــلم أن الجزيئات المذابة تسيل نحو الجهة التي تكون أكثر سيالية، ولا تســـتطيع الـــتوجّه نحو جهة ذات كثافة أكثر. وبالمقابل تسيل الأشياء الموجودة في الوســـط الكثيف نحو الوسط الأكثر سيولة. وهذه قاعدة عامة، لذا فإن كان الجو المحيط بسلسلة البروتينات (الموجودة والمتهيأة لكي تنقلب إلى خلية حية) جواً سائلاً وقليل الكثافة فلا يمكن أن ينتقل أي شيء من هذا الجو إلى داخل الكائن الحي، بل تخـــرج المواد الغذائية الموجودة داخل هذا الكائن إلى الخارج، لذا سرعان ما يهلك هـــذا الكـــائن الذي كان مرشحاً للحياة. وإن كان الجو المحيط بهذا الكائن كثيفاً انســـابت المـــواد منه إلى داخل هذا الكائن، فلا يبقى أمام هذا الكائن أي فرصة للتطور لأنه سينتفخ حالاً. فإن كانت سيولة المحيط بنفس سيولة وبنفس كثافة المواد داخـــل هذا الكائن انقطع التبادل الغذائي بين هذا الكائن وبين محيطه، فلا يتحقق الامتصاص، فانسد أمامه أبواب التطور.

والسبب الثاني بأننا حتى لو فرضنا وقلنا بأن هذا الكائن تشكل على الرغم من جميع هذه المستحيلات. إن هذا الكائن يحتاج -إضافة إلى ضرورة التغذي- إلى طاقة لنبذ فضلاته وطرحها خارجاً. فمن أين سيحصل هذا الكائن الذي خطا أولى خطواته في الحياة على الطاقة؟ لأنه من الضروري خلق الميدوكوندريات التي هي بمثابة محطات الطاقة في الخلية. وهذا الكائن الحي يحتاج في كل دقيقة وفي كل ثانية إلى الطاقة لا من أجل تناول الغذاء أو رمي الفضلات فقط بل من أجل استمرار في حياته. وبدون تزوده بالطاقة لا يمكنه الاستمرار في الحياة. لذا فما مبلغ صحة الادّعاء إذن بأن الكائن الحي يستطيع التزود بالطاقة من خلال حساء البروتين الموجود في قاع البحار؟

إن حسابات الاحتمالات تشير إلى استحالة انقلاب أي مركب كيميائي تحت هذه الظروف لا إلى كائن حي، بل حتى إلى سلسلة من السلاسل البروتينية. ولكن لِنَقُلْ بأن مثل هذا الكائن الحي قد تشكل وتكوّن، فهذا الكائن لا يبقى على شكله الأوّل بل يتطور. لذا كان من الضروري أن تتطور عنده أجهزة الهضم والدوران والتنفس والإفراغ (أيْ طرح الفضلات من غائط أو بول أو عرق) بشكل متناسق ومشترك. ولكي يستطيع هذا الكائن الحي الاستمرار في الحياة يجب ظهور هذه الأجهزة معاً وأن تتطور معاً، وأن تعمل بتعاون وتساند فيما بينها. وهذا يخالف ويناقض الفكرة التطورية لدى دارون، لأنها ترى استحالة ظهور مثل هذه الآلية المعقدة بشكل فجائي وفي وقت واحد.

والآن لنستعرض بعض المحالات الأخرى ونتناولها، فنفرض بأن أجهزة الهضم والدوران والإفراغ والتنفس لدى هذا الكائن الحي الأوّل قد تشكلت تلقائياً وبشكل فجائي، وأن كائناً حياً على شكل دودة قد ظهر إلى الوجود في أحد المستنقعات حسب زعم دارون. هذه الدودة ستكبر طبعاً. فماذا سيكون عمرها؟

وهــل سيكفي هذا العمر لكي تتطور وتنقلب إلى نوع آخر؟ وعندما تنقلب هذه الدودة إلى نوع آخر هل ستشكل بعدها دودة أخرى؟ أم أنه ظهرت أعداد كبيرة مــن الديدان في أماكن عديدة من الدنيا وانقلبت مجموعة منها فقط إلى نوع آخر؟ لــنقل بــأن الــدودة تطورت وانقلبت إلى ضفدعة، ثم انقلبت ضمن سلسلة من الــتطورات إلى حــيوان الكنغر، وأن هذه السلسة استمرت وتتابعت حتى ظهور الإنسان، حيث صغرت الآذان لعدم الحاجة إليها مثلاً.

وهكــذا ظهرت في الحياة مختلف أنواع الكائنات الحية. حسناً... ولكن عندما تطــور فــرد أو بضعة أفراد داخل كل نوع لماذا لم يتطور الأفراد الآخرون؟ وهل هــناك آلية لا نعلمها هي التي تقرر هذا الأمر من ناحية عمليات التطور ومدد كل مرحلة منها؟ وهل يمكن إسناد هذه العمليات وظهور هذا النظام الدقيق في الكون، والحياة على سطح الأرض ثم تطورها وتوسعها وتكاملها إلى المصادفات العشوائية، في الوقــت الــذي تبين قوانين الاحتمالات استحالة ظهور جزيئة بروتين واحدة تلقائــياً وبعوامــل المصادفات؟ وحتى لو فرضنا أن بضعة أفراد من كل نوع تطور وانقلب إلى نوع آخر، فعمر أي نوع من الأحياء يكفي لحدوث مثل هذا التطور؟ فهل كان عمر هذه الأفراد الذين تطوروا يبلغ الملايين من السنوات؟

لا يملــك الداروينيون ولا العلم الإجابة على هذه الأسئلة. وكل ما يستطيعون أمام هذه الأسئلة هو قولهم: "إن هذا هو ما حدث". ويقولون هذا باسم العلم.

أمر مهم آخر أضل الداروينيين

أمـــر آخـــر مهم خدع الداروينيين وقادهم إلى الوهم، وهو قيامهم بالنظر من زوايا عدة فروع مختلفة من العلوم إلى نقطة واحدة لمسألة ما. بينما يجب ألا يقع أي علم من العلوم في تناقض مع علم آخر في هذا الكون في أي موضوع من مواضيع الـــنظام في عالم الجماد أو الحياة في هذا الكون ولا سيما في عالم الأحياء. أي يجب ألا تتـــناقض علـــوم الرياضـــيات والفيزياء والكيمياء وعلم النبات وعلم الحيوان والجيولوجيا وعلم المتحجرات فيما بينها عند القيام بتفسير الوجود.

ولكن عندما نقوم بأي بحث من البحوث، أو بأي تجربة من التجارب في حقل أي عـــلم مـــن العلوم أو في أي فرع من فروع الحياة فنحن لا نتخذ الطفرات ولا التكـــيف ولا الانتخاب الطبيعي كسند، أو كقاعدة لهذه الأبحاث والتجارب. إن القوانين التي نكتشفها في الكون وفي الحياة لا تستند إلى الطفرات، أو إلى الانتخاب الطبيعي... الخ.

أي إن ٩٩ % مـــن الأسمـــاء التي نطلقها على الإجراءات الإلهية التي أدت إلى ظهور الحياة واستمرارها، تعمل ضمن نظام معين مستمر منذ ملايين السنوات على المـــنوال نفســـه، ونحن نقوم بأبحاثنا وبتقييمنا وتفسيرنا للظواهر استناداً إليه. فمثلاً نقـــوم بالاســـتعانة بعـــلم العقاقير (ph colocy) وبعلم الطب الوقائي بصنع الأدوية والعقاقير. وعند النظر في تأثيرها وطرق استعمالها لا نأخذ بنظر الاعتبار أن البكتريات المسببة للأمراض قد تتطور وتنقلب إلى أنواع أخرى.

وعـــندما تكون هذه المسألة موضوع بحث عند التطوريين الذين زعموا أن هذه البكـــتريات تطورت في السابق، نرى الهم بذلوا جهوداً كبيرة لتكرار وإعادة مثل

هذه التطورات فيها، ولكن عندما يكون الموضوع موضوع علم العقاقير أو إلى علم الطب تراهم لا يؤمنون بمثل هذه التطورات، ولا يأخذون التطور ولا النظريات الأخرى المستندة إليه بنظر الاعتبار. ولا نتوقع في المضادات الحيوية التي نستعملها ضد الأمراض أن تقوم جراثيم مرض الجذام بالتحول عن طريق الطفرات إلى جراثيم مرض السل، أو تحول بعضها إلى جراثيم الكوليرا، ولا نفكر هكذا أبداً. كما يستند الطب الوقائي إلى قاعدة قيام الجراثيم بالمحافظة على ماهيتها.

أجل!.. فكما زود الله تعالى كل كائن حي بآلية الدفاع عن نفسه، كذلك قد يقوم البكتريا ببعض الطفرات داخل النوع عند تعرضه لبعض أنواع الأدوية. ولكن هذا التغير يكون محصوراً فقط في إطار القيام بزيادة قدرته الدفاعية وتطوير نظام المناعة عنده. ولا تؤدي هذه التغيرات الصغيرة إلى طفرات تغير في نوع هذا الكائن، فهذا مستحيل. ثم إن هذه الكائنات كائنات مجهرية. والتغير الذي يصيبها في ثلاثين سنة يعادل ملايين السنين لدى الإنسان. وإذا كان من غير الممكن حصول تغير في النوع عند هذه الكائنات الصغيرة في ثلاثين عاماً، فهذا يدل على أن عمر الأرض لا يكفي لحصول التطور. هذا علماً بأن العلم أثبت أن الطحالب الزرقاء والخضراء التي تعيش في البحار كانت موجودة قبل خمسين مليون سنة.

إذن دع عنك موضوع الثلاثين سنة فإن هذه الأحياء لم يصبها أي تغير أو تبدل خلال خمسين مليون سنة، وهي اليوم كما كانت في السابق.

الوجود الزوجي (الذكر والأنثى)

ونستمر في فرض وقوع بعض المستحيلات والمحالات فنقول بأنه تم ظهور الديدان عن طريق التطور. ولكننا نلاحظ وجود الزوج لا في الأحياء فقط، بل في الجماد كذلك. والذين يقومون برسم صور القرد وهو يقترب من الإنسان مرحلة مرحلة يرسمون في الأخير صورة رجل غربي في متوسط العمر. ولكنهم لا يقولون شيئاً حول كيفية ظهرور المرأة. لذا نتساءل: كيف ظهرت الأنثى الأولى لهذا الكائن، وأين ؟ وهل ظهرت بجانب الرجل أم في مكان آخر ؟ وكيف عثر أحدهما على الآخر ؟ ومن أين حصلا على غريزة التزاوج ؟ وهل كان هذا أيضاً نتيجة المصادفات؟ ثم هل فكر أحدهم في عدد السنوات اللازمة لتحول مئات الآلاف من الأنواع من نوع إلى نوع، ثم نشوء الأجيال الجديدة من ذكر وأنثى وتوزعها في كافة أرجاء العالم ؟

الخلية والفعاليات المختلفة فيها

أودّ هنا أن أوجّه الأنظار إلى نقطة أخرى، وهي أن للخلية خاصية الحفاظ على نفسها، وهي تعمل عمل حكومة، وتعد جزيئات .D.N.A الموجودة فيها بمثابة قائد أو حـــاكم يقوم بتعيين طبيعة بنية الإنسان البيولوجية. ثم هناك جزيئات .R.N.A التي تقوم بعمل المهندس والكيميائي فيقوم بعمليات التركيب والدمج، وكأن القدر أودع موضـــوع تعـــيين وضع الإنسان وماهيته في هذه الجزيئات. وهذه الجزيئات تحـــتوي على معلومات موجودة بشكل شفرات والتي تملأ مئات المجلدات، وتظهر عـــندما يحـــين الوقت المناسب بشكل تفاعلات تؤدي إلى صنع البروتينات اللازمة للخلية. و لم يجد الفكر المادي مرجعاً لهذه العمليات الباهرة ولهذه الآلية المدهشة التي ترســـل بموجبها جزيئات D.N.A الشفرات إلى جزيئات .R.N.A التي تقوم بفك هذه الشفرات إلا إسنادها إلى هذه الجزيئات وإلى المصادفات.

ومـــع أنـــنا لا نملك اليوم معلومات قاطعة حول الخلق الأولي للخلية فإن العلم الحديث يعطي لنا معلومات كثيرة حول الخلية، حيث يعرض كل جزء من أجزائها أمامـــنا، ويوضـــح لـــنا مدى التعقيد الذي تتميز به الخلية. ولو كان دارون يملك المعلومات الحالية عن الخلية لقال عنها ما قاله عن العين. فهو يقول في رسالة له إلى صديق:

(كـــلما فكرت في العين زادت حيرتي وذهولي)، لأنه لم يكن يستطيع تفسيرها بالانـــتخاب الطبيعي. ولو استطاع أن ينظر إلى الدماغ وكيفية ظهوره لتضاعفت حيرته وذهوله.

مـــن الصعب سرد جميع خواص الخلية، ففيها فعاليات كثيرة كفعاليات جيش كامل. فكل ما يحتاجه الجسم يركب هناك ويصنع. وللخلية غشاء يملك جزيئات لهـــا شـــفرات تمـــيز بها الخلية المواد النافعة من المواد الضارة. وإذا ظهرت الحاجة أضيفت شفرات أخرى كذلك. وتتصرف هذه الجزيئات كنقاط شرطة وحراسة، أو كموظفـــي الكمارك، فتفتح الأبواب أمام المواد المفيدة، وتبدي ردود فعل ضد المواد الضارة، وتعلن حالة الطوارئ في الخلية. وتبدي الخلية مقاومة ضد أي تدخل أجـــنبي، وإذا لم تســـتطع المقاومة تمرض، وأحياناً تموت. هنا تتعاون خلايا الجسم وتقوم بإخراج هذه الخلية الميتة خارج الجسم.

عـــند وقـــوع تدخل خارجي على خلية ما تقوم هذه الخلية بمقاومة التدخل، وتـــرمي بالجراثـــيم الضـــارة خارج الجسم. أما إن عجزت عن المقاومة مرضت وماتـــت. وقـــد يـــؤدي هذا المرض إلى موت الإنسان. وهذا يعني أن أي تدخل خارجي لا يستطيع تغيير ماهية الخلية. وإذا لم تكن المادة المتدخلة متكيفة مع الخلية ومفيدة لها قامت بإفسادها أو سعت بها إلى الموت.

والخلاصة أنه ليس من المستحيل ظهور وتكون كائن حي فحسب، بل لا يمكن أن يحـــدث أي حادث تلقائياً ومن نفسه. فلا يستطيع حجر صغير أن يغير مكانه تلقائياً، ولا يتعرض للتآكل دون حدوث تأثير خارجي. وألا يكون غريباً أن نقوم بإنكـــار الخالق وإنكار خلقه للكون ولجميع الأشياء والحوادث وإدارته الدائمة لها؟ وربـــط كل شيء وكل حادثة كذلك بسلسلة السبب والنتيجة، وإنكار وجود أي شـــيء خارج القوانين، والنظر إلى الطبيعة وكأنها عبارة عن هذه القوانين، وإنكار وجود أي تأثير آخر خارج الطبيعة وخارج قوانينها!!

أي إننا بهذا نعزو الألوهية إليهما، ثم نتناقض مع أنفسنا فندعي -من أجل إنكار الالوهـــية- أن هذا الكون الرائع وكل ما يحويه ظهر تلقائياً. وهل هناك مثال آخر

لإنكـــار بهذه الشناعة وبهذا البعد عن العلم وعن العقل وعن المنطق؟ بينما نرى أن الإنســـان قد جُهِّز بقابليات وملكات كثيرة ومتعددة ومدهشة من الناحية الذهنية والقلبـــية. وهو مع هذا صاحب شعور وإرادة، وله علاقات وارتباطات مع الزمان والمكان. وعلاوة على هذا فهو لا يكتفي بهذا بل تراه يهتم بما وراء الزمان والمكان.

وعدا هذا فهو مجهّز بعواطف لا تعد ولا تحصى، لذا فهو مخلوق كامل مرشح لحياة خالدة. لذا فإن النظر إلى مثل هذا الوجود الإنساني وكأنه مرتبط فقط بالمادة وبالطبـــيعة وبالمصادفات وبالقوانين التي لها قيم نسبية فقط، وبفرضيات -كفرضية الـــتطور- يعد أكبر إهانة للإنسان وللإنسانية ولأصحاب هذه الفرضيات أنفسهم. أجـــل ما من أحد غير الإنسان يستطيع فعل ما فعله الإنسان نفسه ضد الإنسان. ولهذا نرى أن القرآن الكريم يصف هؤلاء -الذين خرجوا واستقالوا عن الإنسانية- بأنهم ظالمون.

رحلة قصيرة في ا لم الخارجي وفي داخل أنفسنا

يستلزم كل موجود صغيراً كان أم كبيراً في هذا الكون وجوده ضمن توازنات دقيقة وحساسة جداً ومذهلة. وهل يستطيع الإنسان وهو يرى الحكمة والمصلحة والتناسق والتلاؤم الموجود في كل شيء في هذا الكون والوضع العام له ألاّ يفكر في الخالق وألاّ يصيح: "الله أكبر"؟ هنا لا نحتاج أن نذهب بعيداً أو نفكر بهذا أو بذاك، بل يكفي أن نتمعن في أنفسنا وفي أجسامنا، حيث نرى أن جميع الفعاليات معيرة ومنظمة بواسطة الهرمونات وآليات الأعصاب، ويظهر نظام (system) دقيق وخارق للعادة.

وتقوم جميع الأعضاء وكذلك جميع الخلايا بأداء الوظائف الملقاة على عاتقها دون أي خلل أو قصور ونحو هدف واضح ومصلحة واضحة، دون أن تتسبب في أي ضرر لأي جزء من أجزاء الجسم ولا في نظامه ولا في نظامه أو عمله. وبما أنه لا يمكن التفكير في أو توقع وجود أبسط ساعة من دون صانع، فكيف يمكن تناسي وجود من يرى ويعير ويقود جميع الفعاليات الحيوية الدقيقة الجارية في جسم الإنسان والتي تفوق دقة وتعقيد الساعة بملايين المرات؟ إن هذا سيكون أكبر إهانة للفكر وللتفكير نفسه.

إن الدقة الكبيرة الموجودة في الكائنات الحية، والكمال للموجود في أعضاء حواسها، وامتلاك كل كائن أكثر الأعضاء والحواس ملائمة له، يشير إلى وجود من يرى كل شيء ويعلم كل شيء ويملك علماً لا يحده حد. وفي ضمن إطار هذا العلم نلاحظ تخطيطاً دقيقاً ومتكاملاً، وقدرة تقوم بتحقيق هذا التخطيط. وإلا فكيف يمكن تفسير كل هذه الأمور؟

ومـــن أجل إلقاء بعض الضوء على هذا الموضوع دعنا نشير إلى أمرين أو ثلاثة باختصـــار: "ماذا كان يفعل طائر البجع (pelican) المسكين -الذي يملك منقاراً وفمـــاً يســـاعده على أكل السمك- لو لم يجهز برجلين غشائيين تساعدانه على السباحة؟ أنستطيع ان نقول أن هذا الطائر فكر كثيراً ثم قرر أن يطور لنفسه منقاراً ورجلـــين غشائيين؟ وهل نستطيع أن نقول إنه طور معدته وجهازه الهضمي بنفسه حتى وصل إلى وضعه الحالي؟ أم نعزو كل هذا إلى المادة وإلى الطبيعة التي لا تعرف لا هـــذا الطائـــر ولا حاجاتـــه ولا السمك ولا الماء؟ أم نعزو كل هذا إلى رياح المصـــادفات العمياء التي ظهرت أنها غير موجودة في الطبيعة بدءاً من أصغر أجزائها إلى أكبر أجرامها السماوية ؟ أم نزعم بأننا نستطيع حل هذه المسألة بنظرية التطور التي تستند إلى الطبيعة وإلى المادة والمصادفات العشوائية ؟

واعجـــبا!.. ما أضعف هذه الادّعاءات!! وما أهزل ما تستند إليه!! وأليس من أكـــبر الإهانات لنعمة العقل عزو جميع الصفات الموهوبة لملايين الأحياء من أنظمة التغذي والتناسل والوقاية والصيد...الخ الخالية من أي خطأ أو خلل، ولباس الجلد الذي فُصّل تماماً على أجسادها وكأن خياطاً ماهراً قام بتفصيله لباساً وزينة لها... أيمكـــن عزو كل هذا إلى المادة الميتة الخالية من العقل ومن الشعور، أو إلى القوانين الطبيعية ؟

ونرى في عالم النباتات أيضاً هذه الحيوية الباهرة، وهذا التناسق والتناغم، وهذا الـــنظام الذي لا يبارى، ونقرأ إشارات حافلة بالأسرار عن قوة لانهائية تحيط بكل شيء. ولو استطعنا تحقيق رحلة أو سياحة تنطلق مما يبدو أضأل شيء وأقله اهمية، فمـــن يدري ماذا سنشاهد وماذا سنرى، حتى أن القلوب الواعية والعقول المفكرة سترى أشياء عجيبة حتى في حشرة العث التي تعيش على المواد المتعفنة والتي تلعب بعـــض أنواعها دور إكسير الحياة. ففي كل ركن من أركان الكون هناك أمارات

وإشـــارات همـــس بوجود حكيم مطلق الحكمة زيّن هذا الكون بالحكمة والفن والعلم والاقتصاد.

ولـــو قمـــنا بنـــزهة قصيرة في العالم الخفي لديناميكية الهواء وفي عملية تلقيح النباتات بواسطة الريح لرأينا أموراً عجيبة ومدهشة. ولو استمعنا إلى لسان الحكمة والفـــن في كوز شجرة الصنوبر فقط، ودخلنا إلى العالم الخفي لعملية تلقيح حبوب الطلع للخلية الأنثوية، وفهمنا الحوار المحفوف بالأسرار بين الرياح والنباتات لتجلّت لنا لوحات بديعة، وفهمنا معاني همسات سحرية في هذا العالم البديع.

لقد خلق الخالق العظيم كوزات كل نوع من أنواع الراتنجيات بشكل مختلف. وكـــل نوع من أنواع الكوز هذا يعمل على حصول تيار هوائي خاص به، وبهذه الطـــريقة يقـــوم بتحميل حبوب طلع نوعه بأفضل اسلوب، وإجراء عملية التلقيح بأفضـــل شكل. ففي كل نوع من أنواع الصنوبر يلعب قطر الكوز وطوله وشكله وعـــدد حبوب الطلع والزاوية التي يشكلها الكوز مع المحور العمودي وسرعة الريح دوراً مهما في عملية التلقيح. وهناك آلية لم يتم الكشف بعد عن أسرارها يقوم كل نـــوع من أنواع الصنوبر بها بتنقية حبوب طلعه بواسطة أكوازه في الهواء. وعملية التنقـــية هذه تجعل حبوب الطلع الملائمة تطير في الهواء، كما تمنع الأعضاء التناسلية للفطر من الوصول إلى بويضة الشجرة.

ودعنا الآن نقم برحلة قصيرة في الغابات التي تعد "رئات المدن" والتي أصبحت اليوم عليلة ومنهكة القوى، وضعيفة، لنر التساند الوثيق بين الأشجار وبين الإنسان ولا سيما غنى الغابات الاستوائية من الناحية البيولوجية، حيث نشاهد علاقات قوية بـــين أنواع عديدة من الحيوانات والنباتات، وجريان هذه العلاقات في جو مذهل من التلاؤم والتناغم.

وعلى الرغم من التشابك الشديد الذي يظهر في الفعاليات الحياتية في الغابات الاستوائية، فهناك نظام في غاية التناسق بحيث تنتبه القلوب الحساسة إلى مدى الروعة الموجودة فيه وكأنها تسمع شعراً أو موسيقى. إن روعة الفن الالهي الظاهر في الغابات الاستوائية وكماله يبدو ظاهراً بشكل واضح، فلا يتم أي إسراف حتى في أبسط مادة وأصغرها.

وكل موجود عندما يحين أجله يتحول من قبل أحياء موظفة من أجل الاستفادة منه وإعادته بعد مدة وجيزة إلى مادة مفيدة للغابة. وهذا التوازن المستمر منذ ملايين السنين، وهذا التلاؤم والتناغم، وهذا التقسيم الخارق للعمل، وسلسلة التعاون المدهش المتحقق بين النباتات والحيوانات، وهي مخلوقات مختلفة بعضها تماماً عن البعض الآخر، من الصعب على الإنسان حتى في المستقبل القيام به على ما أعتقد.

وإذا أتينا إلى عالم الحيوان نرى أن هناك حوادث خارقة للعادة إلى درجة لا يمكن تفسيرها حتى بالعقل والشعور. والمنبع الأساسي وراءها هو العلم والإرادة اللانهائيتان اللتان تحتضنان الوجود كله. وإلا فمن خداع النفس القيام بتفسير كل هذه الروعة بمصطلح غائم وضبابي لا تعرف ماهيته مثل "الغريزة".

إن تزود الحيوانات ببنية تشريحية مناسبة لطراز الحياة التي تعيشها، (مثلاً وجود نسيج اسفنجي يمص الصدمات في قاعدة منقار نقار الخشب) والنظم الداخلية والاجتماعية والاقتصادية الموجودة لدى صغار الأحياء كالنحل والنمل والنمل الأبيض، وشبكة المعلومات، وقابلية تعيين الاتجاهات، والتسلسل الوظيفي القائم على التعاون فيما بينها، والنجاح الكبير الذي تبديه في الحصول على أغذيتها، وعلاقاتها المشتركة مع الأشجار والأعشاب الموجودة في بيئتها، تظهر أنها خلقت خلقاً كاملاً.

وهـــذه الطـــيور الـــتي تقـــدم للإنســـان موديلات في العديد من الساحات التكنولوجـــية، والجراد والعناكب التي كل منها مجهزة بتراكيب وبنى تكون نموذجاً للإنســـان، ولا سيما الأشكال العديدة للطيران عند الطيور، حيث أنها لا تزال أمام تكنولوجـــية الطـــيران للإنســـان ومـــتقدمة عليها على الرغم من كل هذا التقدم التكنولوجي.

كذلـــك فـــإن الأنغام التي تصدرها الطيور والحشرات علاوة على كونها تعد وكأنها قطعاً موسيقية من ناحية الإيقاع فهي تقوم بمهمة التجاطب والتخابر. ونرى أن للثعابين والحيات -مع كونها محرومة من الأيدي والأرجل- خصائص تمكنها من الصيد. ونرى المزايا التي تتمتع بها الضفادع من أجل المحافظة على حياتها، وكذلك إدامة نسلها ونوعها. ثم هناك الأحياء المائية والمستعمرات المرجانية في الجو الساحر للـــبحار، والأجهـــزة الحساســـة للعقارب، وتصرفاتها التي تقوم بها لحفظ نوعها، وكذلـــك أمـــور عديدة جداً وكلها تشير إلى الخوارق العديدة التي وإن لم تدفع التطوريين إلى الإيمان -لأنهم يتبعون أهواء أنفسهم- إلا أنها كافية لحشرهم في زاوية ضيقة وإفحامهم وإسكاتهم.

نســـتطيع إدامـــة رحلتنا في ساحات المرض والصحة والأدوية والمداواة ونظام المناعة في أجسامنا، وفي دنيا الجراثيم. فهذه المخلوقات الصغيرة جداً التي نقوم نحن بمكافحـــتها عادة بالمضادات الحيوية وبالأدوية الأخرى قد خلقت من أجل فائدة الإنســـان والمخلوقات الأخرى لتأمين التوازن. أجل!. إن هذه المخلوقات المجهرية التي لا ترى بالعين المجردة لصغرها تقوم بخدمة الإنسان. ومع أنها تكون ذات فوائد كبيرة حيناً، تكون ذات مضار أيضاً في المحيط السيء الذي نقوم بتهيئته.

ونحن نشاهد كيف أن نظام المناعة الموجود في أجسامنا -والذي يعدّ من أعقد الأنظمة وأكثرها خفاء وأسراراً- في يقظة دائمة وانتباه ضد الأمراض، وكيف يقوم

وكأنه أركان حرب بالتدخل في الوقت المناسب وفي المكان المناسب، وبالدخول في صـــراع مع مختلف الجراثيم ولا سيما مع الخلايا السرطانية. ومن المتوقع أن تظهر الجوانـــب الأخرى المخفية له في المستقبل، وعندئذ يكون في الإمكان -بإذن الله- التغلـــب على الكثير من الأمراض التي تبدو الآن مستعصية على العلاج، لذا فآمالنا معقـــودة على هذا. وعلى الرغم من قيام أجسامنا بنضال ناجح عموماً ضد الخلايا الســـرطانية، إلا أن جهاز المناعة لا يكفي وحده في هذا الخصوص، لذا تتم تجربة طـــرق خطرة في علاج هذا المرض. ونحن نأمل حصول تقدم أكبر في هذا الصدد بإنتاج مواد مضادة، ونظراً لعدم استعمال الأشعة والنظائر هنا يكون الضرر الملحق بالمرضى أقل بكثير. وسيأتي يوم تتخلص فيه البشرية من هذا الكابوس.

وعـــلى الرغم من كل هذه الحقائق الواضحة فإن قضية إنكار الله تشغل حيزاً كـــبيراً في هـــذا الفكر المادي الذي أقيم على أساس الديالكتيك والصراع، وهو وبفكـــر مسبق ودوغمائي لا يرى شيئاً خارج المادة ولا يعترف به. وبعد أن يقوم بكـــل عجالـــة ودون تمعن كاف بإنكار الخالق العظيم، نراه يحاول تفسير النظام والتناغم ولوحات الجمال المتداخلة بعضها في بعض في أرجاء هذا الكون بعبارات مـــبهمة وباهـــتة وضبابية أمثال (القوة، المادة، الطبيعة) مع تناسي الحِكم والمصالح والمنافع التي تتجلى في القوة وفي المادة.

لـــذا فبيـــنما كان من المحتم عزو كل هذه الخوارق التي تبدو في الآثار البديعة والفـــنون المتجلـــية في شتى المعارض على الأرض، وصور الجمال والنظام والدقة المتجلـــية في الكـــون إلى ذات علوية يرى كل ما خلقه وصنعه ويعلمه، بدلاً من عـــزوها وإســـنادها إلى المادة الصماء الخالية من الحياة ومن الشعور، وهم بذلك ارتكبوا أغرب خرافة فكرية وأخرقها وأشنعها.

إن الـــنظريات المادية من أمثال "الوجودية" و"الحياة" التي ضللت العديدين حتى الآن، والـــتي تم تناولها من قبل العديد من المفكرين مرات ومرات بطرق وأساليب مختلفة، وقيمت بطرق واساليب مختلفة، وفي النهاية لم يستطع أحد أن يدخلها بأي أســلوب ماكر في دنيا العلوم الوضعية و لم تتم البرهنة على صوابها على الرغم من محاولات التجميل العديدة التي قاموا بها، ومحاولات تحبيبها إلى الجماهير، وتبين في الأخير أن هذه النظريات لا تملك أي مصداقية، ولا أي نصيب من الصحة.

وقد تبين في أيامنا بكل وضوح بأن الوجود كله مرتبط بقوانين معينة من صنع قـــدرة لانهائـــية ســـامية فوق كل شيء، وأن الحياة وجميع خصائصها تختلف عن الخصـــائص المادية. فإن أردنا إيراد مثال على هذا نقول مثالاً معروفاً للجميع وهو أنه على الرغم من تعرض المادة -التي ينسبون إليها كل شيء- إلى تغيرات مستمرة في أبداننا فلا تتعرض حياتنا ولا ماهيتنا لأي تغيير، بل تستمران بشكلهما الأصلي، وهذا مثال واحد حول موقع المادة ودرجة تأثيرها ومدى ثقلها في الأحياء.

والحقـــيقة أن جمـــيع الاكتشـــافات الحديثة للعلم تبين أن المادة ليست رقيبة ومســـيطرة على كل شيء مثلما يدعي الماديون، وليست جميع الأشياء عبارة عن دورات لـــلمادة ← الطاقـــة، والطاقة ← المادة، وأن خلق الوجود ودوامه معقد بدرجة كبيرة بحيث يستحيل تفسيره بالمصادفات، أو عزوه إليها، وأن قواعد النظرة المادية ضعيفة ومتهافتة، وإن كانت من قبل تبدو قوية ومتماسكة.

إن المـــادة سواء على سطح أرضنا أو خارجه عمياء وصماء وخالية من الحياة ومـــن الشـــعور، لا تستطيع إدارة نفسها بنفسها ولا تحريك نفسها بنفسها. كما يســـتحيل على الأجزاء المكونة للمادة القيام تلقائياً وإنجاز هذه الخوارق. إن القدرة اللانهائية هي التي تدفع الموجودات من ظلام العدم إلى الوجود، وتهب الحياة لبعض الموجودات وتجمع الذرات وتحركها وتدفع بها في الشعيرات الدموية الدقيقة، وهي

التي تدفع الموجودات -ببرامجها النابعة من العلم اللانهائي- بعد خلقها نحو الغايات التي خلقت من أجلها.

وبناء على هذا فإن كل شيء، بدءاً من أصغر أجزاء الذرة إلى أكبر منظومة كونية في تناغم وتلاؤم فيما بينها، وفي علاقات منظمة وموزونة. لذا فإننا نعدُّ أن النظر إلى أن كل هذا من الخصائص الأساسية للمادة انخداع ووهم، وأن هناك حاجة إلى نظرة أصح وأكثر إلى الأشياء وإلى الحوادث عند القيام بتفسيرها.

أجل! فمن ناحية هناك الخلق الأولي الذي يعد معجزة المعجزات، ومن ناحية أخرى هناك عمل جميع المنظومات منذ خلقها حتى الآن بكل نظام ودقة، والمحافظة على هذا النظام الساري في كل مكان، إضافة إلى توسع المكان أي الكون، وقابلية الكون على الانقسام في أثناء هذا التوسع إلى أجزاء تحولت فيما بعد إلى كتل المجرات. فكيف نستطيع تفسير كل هذه الأمور المتناقضة فيما بينها؟

فماذا تعني مثلاً قوة الجاذبية الموجودة بين الكتل -وهي قانون وقوة خلقها الله تعالى- التي تتناقض مع قوة توسع الكون وتعاكسها؟. وكذلك نرى أن الدماغ يؤدي وظائف مختلفة ومتناقضة فيما بينها في اللحظة نفسها، وأن أموراً وأوضاعاً وأحوالاً عديدة مختلفة تظهر فجأة، فإذا لم ننسب كتاب الكون -الذي تظهر فيه الفروق ضمن وحدة شاملة، والتناقضات ضمن إطار من الوحدة- إلى صاحبه الحقيقي، فكيف نستطيع تفسير خصائصه وما يتقلب فيه من حوادث وأمور؟

فإن قمنا بإغماض أعيننا عن الخلق الأولي، وتناولنا كل ما ظهر بعد ذلك من الأحياء وكل شيء وكأنه واضح وظاهر ولا يحتاج إلى أي إيضاح أو تفسير... إن فعلنا هذا ألا يعد هذا التصرف ضربة موجعة إلى العلم وإلى الكرامة العلمية؟

الخلق كما ورد في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية

قـــبل اســـتعراض الآيـــات المـــتعلقة بالخلق، سنلقي نظرة مختصرة على الهوية الإعجازية للقرآن فنتناول بعض الآيات القرآنية في هذا الصدد. إن القرآن الكريم ذا البـــيان المعجز هو الذي يجب أن يتكلم وهو الذي يجب أن يصدر أحكامه ويختم الموضـــوع بختمه. والقرآن بآياته التي لم تُفهم حق الفهم إلا مؤخراً يشير إلى الأفق الأخير لما يستطيع العلم بلوغه، وسيجد العلم عندما يتقدم في أي ساحة من ساحاته رايـــة القرآن وهي ترفرف في الأفق البعيد لتلك الساحة، ومن المحتمل أنه في بعض الســـاحات لن يستطيع بلوغ تلك الراية. ولكي تتوضح المسألة أرى من المفيد أن أورد بعض الآيات:

١. ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَآئِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾ (النحل: ٦٦).

تعد الحيوانات أمارة من أمارات وجود الله ووحدانيته، والله جل جلاله يسقينا هذا الحليب -الذي يعد غذاءً كاملاً- ويستخلصه من بطون الأنعام من خلال الدم والـــروث. وقد ثبت علمياً أن الغذاء الذي يتناوله الحيوان يتم هضمه في المعدة وفي الأمعـــاء، وأن الفضلات تبقى في الأمعاء ريثما يتم طرحها خارجاً، وأن الدم الذي يـــتكون من الهضم يمتص من قبل بعض الغدد ويرسل إلى الأوعية الدموية. وهكذا تـــتم التصـــفية الأولية، وبعد ذلك يتحول جزء من الدم الآتي إلى الغدد الحليبية إلى غذاء لخلايا هذه الغدد، ويتحول الجزء الآخر إلى حليب.

وقد أثبت العلم الحديث أنه لكي يتحول ما يأكله الحيوان إلى حليب يجب أولاً هضـــمه في المعدة ثم تصفيته من الفضلات والروث، ومن ثم تصفيته وترشحه من

الدم. والتعبير القرآني هنا (من بين فرث ودم) يعني أن الغذاء يتحول إلى حليب بعد عمليـــتين من التصفية في الروث وفي الدم. وقد كان من المستحيل على رسول الله أن يعـــرف هـــذا الأمر -الذي أخبر به من قبل الله تعالى- قبل ١٤ قرناً، فهذا شيء علّمه إياه القرآن الكريم المنـــزل من قبل الله تعالى.

٢. ﴿فَمَـــن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِين لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام:١٢٥).

يقـــوم القرآن بشرح حال الغارق في مستنقع الكفر والضلالة، الذي قد ضاق صـــدره فلا يستطيع الخلاص من تعاسته وضيقه، ويعطي القرآن هنا مثالا لمثل هذا الشـــخص الـــذي يضيق صدره كلما ذُكر الدين والإيمان، أي يشرح شيئا مجهولاً بشـــيء معلوم فيقول: "أتدرون ماذا تشبه حال الشخص الذي ضاق بكفره والذي يدخـــل في دوامـــة من الاضطراب والضيق كلما ذُكر الدين أو الإيمان؟" ثم يصور حـــال مثل هذا الشخص فيقول بأنه يشبه حال من أجبر على الارتفاع في السماء. ولا يقـــول القرآن أنه "يصّعّد في حبل" بل يقول إنه "يصّعّد في السماء". و لم يكن الصعود في السماء مألوفا حتى وقت قريب، كما لم يكن معروفا من قبل أن تنفس الإنسان يصعب كلما صعد في السماء بسبب قلة الاوكسجين. والقرآن يقوم قبل ١٤ قرنا بسرد هذه الحقيقة عند ذكره مثالا حول الإيمان.

٣. ﴿وَأَرْسَـــلْنَا الـــرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ (الحجر:٢٢).

فهـــم بعـــض المفسرين القدامى هذه الآية فهماً جيداً وبالمستوى اللائق. فمثلاً عـــندما يقوم ابن جرير الطبري الذي عاش قبل ١١ قرناً (الوفاة هـــ٣١١/٩٢٣م)

بتفسيرها يذكر شيئاً يشبه الكرامة. فهو يذكر أولاً ما قاله ابن عباس عندما سُئل: ما المراد من قوله تعالى (وأرسلنا الرياح لواقح)؟ ثم يضيف قائلاً: "تقوم الرياح أولاً بالتلقيح في عالم النباتات ثم يقوم بتلقيح السحب".[1]

ولكن أكثر المفسرين الذين أتوا بعده، وحتى المفسرين في القرن العشرين لم يستطيعوا أن يسروا هذا المعنى في هذه الآية فاقتصروا على ذكر دور الريح في تلقيح النباتات، بينما تقوم هذه الآية بعد ذكر خاصية الرياح في التلقيح بذكر المطر مباشرة.

إن رؤية ابن جرير لقصد القرآن هنا شيء يستحق التقدير حقاً. لأن كون السحب ذات شحنات كهربائية، وقيام الرياح بسوق هذه السحب والتقاء الشحنات السالبة والموجبة في السحب وتكوينها دائرة كهربائية قصيرة التي تؤدي إلى انهمار الأمطار من الإكتشافات العلمية الحديثة. وكما أخبر القرآن هذا الأمر قبل ١٤ قرناً فقد فهم ابن جرير هذا المعنى قبل ١١ قرناً فتحدث عن قيام الرياح بتلقيح السحب.

ثانياً إن كلمة "لواقح" الواردة في الآية تأتي من فعل "لقح، يلقح". إذن فهناك ثنائية الموجب والسالب والذكورة والأنوثة في النباتات وفي السحب، حيث لا يتم التلقيح إلا بينهما. وهذا أيضاً ما أخبر به القرآن قبل ١٤ قرناً. ثم إن القرآن ذكر في آيات عديدة أن كل شيء قد خلق زوجين إثنين. (يس:٣٦، الذاريات: ٤٩) وهذا معجزة أخرى للقرآن.

٤. ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٤٣).

١. الطبري: "جامع البيان" الجزء الرابع عشر. ص ١٩-٢٢.

تســتعرض الآية تراكم السحب وكيف أنها تبدو مهيبة كالجبال. ولم يكن في وســعنا أن نعــرف قبل استعمالنا للطائرات وصعودنا للسماء بأن السحب تبدو كالجبال. والآية الكريمة تتحدث عن سقوط الأمطار من بين السحب ولكن الأمر الــذي اريد الوقوف عنده هنا هو التعبير الآتي: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِــن بَــرَدٍ﴾، لأنــنا ونحن في الطائرة عندما ندخل داخل سحب تدعى "سحب الأعاصير" نحس بوجود قطع جليدية بين السحب، وهذا أمر يعرفه الطيارون جيداً. وإذا اصطدمت هذه القطع بجناح الطائرة قد تثقبه. ويذكر القرآن وجود المطر بين الســحب التي تشبه الجبال ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ وكذلك وجود البرد فــيها ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ أي أن جزءً من البرد فقط هو الــذي ينــزل، وليس كله. ومقابل إخبار القرآن بهذا قبل ١٤ قرناً لم يكن العلم يعلم حتى الأمس القريب أن السحب تبدو كالجبال، ولا أن بعض السحب تكون سحب الأعاصير، وأنها تحتوي على قطع جليدية، ولا أن بعض هذه القطع تسقط وبعضها تبقى هناك.

٥. ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات:٤٧).

في عام ١٩٢٢م قدم العالم الفلكي هوبل كشفاً هدية لدنيا العلم، وهو ما دُعي بــ"مُعامل هوبل". كان هذا الكشف يتعلق بظاهرة قيام المجرات بالابتعاد عنا بنسبة وبسرعة معلومة. ثم فسر العالم الرياضي البلجيكي "لاماتري" هذا الأمر بأنه "توسع المكــان". فمثلاً إن كانت المجرة الموجودة في برج الدلو تبتعد عنا بسرعة كذا من الكيلومتر في الدقيقة، فإن مجرة أخرى أكثر بعداً عنا تبتعد بسرعة أكبر. وتتم قياس هذه السرعات عن طريق تحليل طيف تلك المجرة ومدى انحرافه نحو الأحمر.

ثم اعــترف عــلماء مشهورون آخرون مثل "جيمس جينز" و "أدينجتون" بأن المكان — أي الكون - يتوسع، وبدأوا يدافعون عن هذا الاكتشاف. ومال آنشتاين

إلى هذا أيضاً. وسواء أكان هذا التوسع عن طريق ابتعاد المجرات بعضها عن بعض أم كـــان حســـب قـــول آنشتاين "أن هناك عوالم تتشكل في أماكن لا نستطيع معرفـــتها"، أي أن هناك توسعاً غامضاً لا ندرك كنهه... سواء أكان هذا أم ذاك فالأمر سيان.

والآيـــة هنا لم تربط السماء بأي سبب من الأسباب، بل ذكرت بأن الله تعالى هـــو الذي بناها وخلقها، ثم أردفت الآية بجملة اسمية ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾. والجمل الفعلـــية في اللغـــة العربـــية تفيد التغير والتجدد، بينما الجمل الاسمية تفيد الثبات والاســـتمرارية. والجملـــة هنا إسمية أي تفيد استمرارية التوسع وثباته. وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة العلمية حول توسع المكان- مثل غيرها من الحقائق العلمية الأخرى- قبل ١٤ قرناً.

وبعد الإشارة إلى بعض الحقائق العلمية الموجودة في القرآن، وإلى إعجاز القرآن في هذا الصدد، نستطيع الانتقال إلى حقيقة الخلق الواردة في القرآن.

ـ الخلق في القرآن

سنشـير من القرآن الكريم -الذي يعد معجزة من أوّله لآخره- إلى أربع آيات فقـط حـول منشأ الإنسان لنختم هذا الموضوع. ولكن نرى من المفيد أن نورد تقييماً عاماً حول الآيات المتعلقة بالخلق في القرآن.

إن الآيـات المـتعلقة بخلق سيدنا آدم ؛ مثلما تتناول هذه المسألة من ناحية القدر، تتناولها أيضاً من ناحية مراحل الخلق مرحلة فمرحلة. كما يتناول القرآن -كما ذكرنا من قبل- المراحل التي يمر فيها الجنين في رحم أمّه. أي أن القرآن الكريم يتـناول المـراحل التي يمر منها جنين كل إنسان -بعد آدم ؛- بعد قيام نطفة الذكـر بتلقـيح بويضة الأنثى حتى وصوله إلى إنسان كامل وسوي. وهو يتناول أحـياناً منشأ الإنسان الأوّل وخلقه بجانب شرح مراحل تطور الجنين، ويتناولهما أحياناً بالشرح كلاً على حدة. فعلى المستوى المادي كان التراب مادة الخلق الأولي في المـرحلة الأولى للإنسان الأوّل وللناس الذين جاءوا من بعده، ثم من طين رخو ملتصـق، ثم من سلالة مصفاة من هذا الطين (سلالة من طين) ثم من حمأ مسنون، أي من طين أسود مهيأ للتفسخ ليتحول إلى الهيكل الإنساني، والذي رُسم له طريق وهدف معين، ثم من طين مفخور يرن، أي من صلصال:

هـذه المـواد تومئ إلى المراحل التي تشكل فيها الإنسان. والمراحل التي يعيشها الجـنين في رحم أمّه مشابهة لهذه المراحل. ولا يهم إن كان عدد هذه المراحل أربع أم سـت مراحل، لأن من الممكن إرجاع بعض هذه المراحل لبعض. ولكن المهم هنا أن هذا الحساء الترابي بمواده الأوّلية شكل أساس خلق الإنسان مرحلة فمرحلة. ولا شك أن لعنصر الماء دوراً كبيراً في تحويل التراب إلى حساء للمعادن أو إلى حساء بروتيني.

ويوضح القرآن هذا الحساء في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلَالَةٍ مِن طِينٍ﴾ (المؤمنون:١٢). وتشير الآية: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠) إلى أهمية الماء. والظاهر أن اتحاد الماء مع التراب يشكل مرحلة أخرى مختلفة.

ثم تأتي بعد هذا مرحلة التشكيل وإعطاء صورة خاصة للإنسان، حيث تشير الآية : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: ٢٦) إلى هذا الأمر. ثم تأتي مرتبة "التسوية"، أي وضعه في توازن تام بكامل هيأته: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٩).

وبهذه المرحلة الأخيرة ظهر في الكون موجود ومخلوق جديد يملك مع مادته معناه وروحه بشكل متداخل ومتمازج... مخلوق جديد يملك مع بدنه المتناسق الكامل عمقاً روحياً. وحتى وصول الإنسان إلى هذا المستوى مر من المراحل التالية (مهما كانت حقيقة المعاني الحقيقية لهذه الكلمات ومحتواها): تراب فطين، فسلالة من طين، فطين لازب، فحمأ مسنون، فصلصال، ثم شرّفه الله تعالى بأن نفخ فيه من روحه وجعله خليفة وكرّمه وجعله من أشرف المخلوقات. ودامت هذه المراحل حول هذه الخصائص الإنسانية عند الذين جاءوا من بعد الإنسان الأول. ويمكن تأمل ومشاهدة التداعي الموجود بين المبدأ والحالة المستمرة بكل متعة.

إن المغامرة الإنسانية لبني آدم في المجيء إلى الأرض وتشريفهم لها، والتي بدأت بخلق إعجازي لسيدنا آدم وأمّنا حواء (عليهما السلام)، أصبحت تبدو وكأنها أمر من الأمور العادية، وذلك لكي يكون هناك حجاب وستار للأفعال وللشؤون الالهية، وستستمر هكذا.

والغاية الأصلية من استمرار الحياة في الأرض -التي خلقها الله تعالى والتي يرغب الإنسان في استمرارها ويدعو لذلك- هي معرفة الله جل جلاله والعبودية

له. فالله تعالى هو الذي وهب له الإرادة والشعور والعقل والقلب وفضله على كثير ممـن خلق تفضيلاً، وتجلت إرادته في جعل آدم محراباً.[1] لذا كان على هذا الإنسان أن يعـلم -تجـاه هذه المشيئة الإلهية- أن عليه القيام بوظيفة معرفة خالقه وتعريفه للآخـرين، وحبّه وتحبيبه، لكي يوفي بجزء من الشكر الواجب عليه حيال من جعله في أحسن تقويم.

والآن لننتقل إلى الآيات القرآنية المتعلقة بالخلق:

١. ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾ (البقرة:٣٥).

يقـول لنا القرآن حول هذا الأمر الذي جاء في مواضع متعددة منه مع بعض الـتقديم والتأخير في بعض الكلمات ما يأتي: "لقد قلنا لآدم أقم أنت وزوجك في الجنة واتخذاها مسكنا لكما، وتمتعا بما فيها من نعم".

ولو كان التطور صحيحاً ومتحققاً لما بدأ القرآن بتناول الظهور الأوّل للإنسان بالحديـث عـن آدم وحواء (عليهما السلام). ولو فرضنا للحظة صحة ما يدعيه الـتطوريون لمـا أهمل القرآن الإشارة إلى هذا الأمر مطلقاً نظراً لأهميته الكبيرة من زاوية الوجود ولا سيما من زاوية الأحياء. ولو كان التطور -حسبما يتصور بعض البسطاء والسذج- هو أسلوب الخلق عند الله تعالى وستاراً لإجراءات الله تعالى في خلق الحياة لتناولت بعض الآيات هذا الأمر مراراً وذكرته وأشارت إليه. بينما يبدأ القرآن في موضوع الإنسان من آدم وحواء مباشرة، ولا يشير للتطور لا من قريب ولا من بعيد.

---

١. إشارة إلى أن الله تعالى أسجد ملائكته لآدم . (المترجم)

وقد زعم بعضهم أن الآية الأولى من سورة الدهر ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّــنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً﴾ (الإنسان:١) تشير إلى التطور، بينما تشكل هذه الآية دليلاً معاكساً للتطور لأنها تشير إلى أن وقتاً طويلاً قد مر دون أن يكون هناك أي إنســـان. وقد فهم بعض من أحسوا بهزة أمام الدعاية التطورية القوية من هذه الآية بأنه كان هناك أثر ضئيل للإنسان في العهود السابقة السحيقة، ولكنه لم يكن بعـــد إنساناً متكاملاً. وحتى لو كان هذا هو المعنى فهذا يشير إلى أن الإنسان كان موجـــوداً في العـــلم الالهي وفي خطة القدر، ولا علاقة لمثل هذا الوجود بالوجود البـــيولوجي. وإذا نظرنا إلى الموضوع من زاوية أخرى وقلنا بأن الإنسان هو نواة الكـــون، فهذا أمر يرجع إلى ماهية الإنسان. ثم إن النواة قبل الوجود وقبل شجرة الوجود. وهذا ينقض التطور من أساسه.

٢. ﴿إِنَّ مَـــثَلَ عِيسَـــى عِـــندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩).

عـــندما بدأ الناس يقعون في شك تجاه خلق عيسى ؛ وولادته من غير أب، قـــام القرآن بإيضاح هذا الأمر، كما فتح نافذة أخرى حول خلق الإنسان الأول. أي كمــــا لم تتحقق ولادة السيد المسيح ؛ ومجيئه إلى الدنيا بشكل عادي (أي حسب القوانين السارية على الجميع)، بل جاء بمعجزة إلى الدنيا من غير أب، فهذا أمـــر يجب ألا يدهش أحداً، لأن آدم ؛ جاء أيضاً إلى الدنيا بمعجزة. هذا علماً بـــأن آدم ؛ لم يكن له أم كذلك. إذن فالله تعالى يفعل ما يشاء وكيفما يشاء، وهـــو قادر على كل شيء. ولكن لكي نفهم إجراءاته، ولكي نستطيع إدامة حياتنا في هـــذه الدنيا فقد خلع على إجراءاته لباساً من الأسباب والقوانين. وهكذا بدت الحـــوادث ظاهـــرياً وكأنها مطردة على نسق واحد ومستديم. ولو كان العكس لما كانـــت هناك حياة. ولكنه يقوم أحياناً واستناداً إلى حكمة وسبب معين بخرق هذا

الاطــراد. ونحــن نطلــق على هذا اسم "المعجزة". وهكذا فإن خلق عيسى وآدم (علـيهما الســلام) من ضمن هذه المعجزات. فلم يكن هذا الخلق -كما يدّعي التطوريون- مرتبطاً بمرحلة معينة أو بقانون أو تكيف أو بطفرات معينة.

يقــوم القرآن في أحيان كثيرة بضرب الأمثال والتشبيهات للحقائق المجردة أو المتشابهة التي يصعب فهمها. وعند القيام بالتشبيه يجب أن تكون هناك تقارب بين المشــبه والمشــبه به بحيث يجوز ضرب المثل من أحدهما للآخر. فالذين لا يريدون الإيمــان بولادة عيسى ؛ دون أب، عليهم أن يتأملوا خلق آدم ؛، فلم يكن لآدم أيضــا أب، بل لم يكن لــه أم أيضاً. فمن يؤمن بهذا لا يمكن ألا يؤمن بمثال عيسى ؛.

إذن فالـــناس كـــانوا يؤمنون بخلق آدم ؛ من قبل الله تعالى كمعجزة حتى ظهور نظرية التطور، فقام القرآن استناداً إلى هذا بضرب مثال خلق آدم ؛. لأنه لا يمكـــن شرح بمجهول بمجهول آخر، بل بمعلوم. ففي التاريخ الإنساني كان الناس يؤمنون بآدم ؛ ويعدّونه أباً للإنسانية كلها. كما تناول تاريخ الأديان آدم ؛ عــلى هـــذا الأساس حتى ظهور دارون، و لم يشذ أحد عن هذا. وبعد دارون بدأ بعضــهم بتقديم بعض الأحياء كالقرد والنسناس سلفاً وجدّاً للإنسان. وهذه الآية تذكــر بشكل واضح لا لبس فيه بأن آدم ؛ هو أب البشرية وأنه خُلق من قبل الله تعالى بشكل إعجازي.

٣. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر: ٢٨-٢٩).

وتشرح هذه الآية أن الله تعالى خلق آدم ؛ من تراب، ومن طين... من طين بـــدأ بالـــتعفن وأعطي لـــه شكل معين (حمأ مسنون)، ثم يبس هذا الحمأ المسنون

فأصبح صلصالاً. فالإنسان مخلوق من هذا الصلصال الذي أعطي له شكل إنساني، ونفـــخ فيه روح إلهي. وهناك حديث شريف يذكر بأن آدم خلق من جميع تراب الأرض، أي كأنـــه ترشح من جميع عناصر الأرض. وربما كان القصد من "الحمأ المسنون" الوارد في الآية حساء من البروتين أو معجون من البروتين. وقد يكون هذا الترشح والتصفية وراء إسم آدم ؑ: "صفي" أو "صفي الله".

وعـــندما نتأمل هذه الآية والآيات السابقة التي أوردناها، نرى أن آدم ؑ لم يُسند إلى أي منشأ آخر خارج التراب والماء، أي خارج عناصر الأرض، وأنه لم يمر بمـــراحل تطوريـــة من دود إلى ضفدع وطائر وحصان وقرد. فكما أن كل إنسان مخلـــوق من ماء مهين، أي من نطفة تقوم بتلقيح البويضة في رحم الأم ثم يمر الجنين بمـــراحل عديدة، وينفخ فيه الروح في مرحلة معينة منها، وكما أن الوجود المادي للإنســـان يستند إلى العناصر الآتية من الهواء والماء والتراب ، فالله تعالى خلق آدم ؑ عـــلى نفس النمط من العناصر المترشحة من هواء وماء وتراب الأرض، لكي يشـــكل هيكله المادي، ويعين ماهيته المستقلة، ثم نفخ فيه من روحه في إحدى هذه المراحل، ولكن دون أب ولا أم.

والحقـــيقة أنه كما يذكر القرآن حول خلق عيسى وآدم (عليهما السلام) خلقاً إعجازيـــاً، أحدهمـــا دون أب،[1] والآخـــر دون أب ودون أم، ويشير إلى العلاقة الموجودة بين كلا الخلقين من زاوية الإعجاز. وكذلك نرى عدم وجود فرق كبير بـــين خلـــق آدم ؑ –إذا استثنينا خلقه دون أب ولا أم– وبين خلق من جاءوا بعده. ففي كلتا الحالتين استند الخلق إلى عناصر الهواء والتراب والماء، ففي إحداهما

١. نظرا لكون الرجل هو الذي يلعب الدور الرئيسي في عملية التناسل، فإن الإعجاز الأصلي هو الخلق دون أب. و (النفس الواحدة) الواردة في القرآن الكريم (النساء:١) والتي جاءت منها البشرية جمعاء تشير إلى آدم ؑ في أكثر الأقوال. لذا يتم إرجاع البشرية عادة إلى آدم .

انقلبت هذه العناصر إلى نطف في صلب الأب وبويضة في رحم الأم، وفي الأخرى تحولت إلى حياة في موضع ومكان قام مقام رحم الأم.

٥.﴿يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَـا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ (النساء:١).

يقـول القرآن بأن جميع الناس يرجعون إلى "نفس واحدة"، ويرفض رجوعهم إلى سلسلة من الآباء. ويجب هنا تقييم تعبير النفس الواحدة التي خلق منها زوجها حسـب الشرح الذي أدرجناه في الهامش، وكذلك حسب الحقيقة الواردة في عدد من آيات القرآن حول خلق كل شيء زوجين اثنين. فليست هذه النفس الواحدة، ولـيس زوجها التي خلقت بالماهية الإنسانية نفسها حلقة من حلقات تسلسل ما، فهو أب لنوع خاص، وزوجه أم النوع نفسه.

بعض الآيات القرآنية حول الخلق

١. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ مِن سُلاَلَةٍ مِن طِينٍ﴾ (المؤمنون: ١٢)

٢. ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠)

٣. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه مِـــن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ الْمَلاَئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ (ص: ٧١-٧٤).

٥. ﴿وَهُـــوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾ (الفرقان: ٥٤).

٦. ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً﴾ (فاطر: ١١).

٧. ﴿هُـــوَ الَّـــذِي خَلَقَكُم مِن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسمّىً عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ٢).

٨. ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنشَأَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٩٨).

٩. ﴿ثُـــمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلاَلَةٍ مِن مَاءٍ مَهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٧-٩).

١٠. ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (الرحمن: ١٤).

الخلق كما ورد في الأحاديث الشريفة

١. قـــال رســـول الله : "استوصوا بالنساء فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعـــوج مـــا في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء".[١]

٢. وكمـــا هو واضح في الحديث فإن رسول الله لا يربط خلق حواء بأي عملية تكاملية أو تطورية.[٢] قال رسول الله : "إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ستين ذراعاً".[٣] يذكر الرسول بشكل واضح لا يدع مجالاً لأي تأويل آخر بأن آدم هو أب الإنسان الأول.

٣. قـــال رســـول الله : "إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض. فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلـــك والسهل والحزن والخبيث والطيب".[٤] كما يفهم من هذا الحديث فإن منشأ وأصـــل آدم كأنه من معجون مركب مأخوذ من جميع أرجاء الأرض. فالله تعالى قام بمثل هذا التركيب وخلق منه آدم .

١. البخاري، الأنبياء ١؛ مسلم، الرضع، ٦١-٦٢ ؛ الدارمي، النكاح ٣٥ ؛ المسند، ٨٨/٥.

٢. في موضوع خلق حواء(عليها السلام) من ضلع آدم ، انظر إلى : (أسئلة العصر المحيرة) للمؤلف.

٣. ابن عساكر:" تاريخ دمشق" ٤٠٤/٧-٤٠٥. وانظر كذلك: البخاري، الإستئذان ١. من الطبيعي أن يكون هذا هو قامة الإنسان في ذلك العصر الذي كان سطح الأرض مغطى بالغابات، ولم يكن بنو الانسان بالعدد الكافي للانتشار في أرجاء الأرض. وبما أن شروط وظروف الإقليم وطبيعة سطح الأرض هي التي تؤثر في طول أو في قصر قامة الإنسان، فإن كثافة عدد السكان تؤدي إلى قصر القامة. ولكي ندع باب التفسير واسعاً نقول بأن ابن خلدون يرى أن القامة المذكورة لآدم عليه السلام هي قامته عندما كان في الجنة. والله أعلم.

٤. الترمذي، تفسير السورة ١- ١٢؛ أبو داود، السنة١٦؛ المسند٤٠٠/٤ - ٤٠٦.

٤. قـــال رسول الله : "لما خلق الله عز وجل آدم تركه ما شاء الله أن يَدعَه فجعل إبليس يُطيف به ينظر إليه فلما رآه أجوفَ عرف أنه خَلْقٌ لا يَتمالَك".[١]

لا نعـــثر في هذا الحديث على أي عبارة تومىء لا من قريب ولا من بعيد إلى الـــتطور. فالشيطان تأمل هيكل آدم ، وهو في مراحل الخلق ورأى فيه فجوات كثيرة، وتوصل إلى نتيجة أن الإنسان مخلوق لا يستطيع السيطرة على نفسه. وهذا أمـــر في غاية الأهمية، فكما هناك علاقة بين قلبنا البيولوجي وقلبنا الذي يعد مركز حياتـــنا الروحية والمعنوية، كذلك فمن المحتمل وجود علاقة شبيهة بين البنية المادية للإنســـان وبين خُلقه وطباعه. والحديث ينبه إلى الضعف الموجود في طباع وخُلق الإنســـان، وإلى مشـــاعر الحقد والطمع والشهوة والغضب والمكر، التي إن لم تتم تربيتها قادت الإنسان إلى الهلاك الروحي والمعنوي.

٥. قـــال رســـول الله : "لما نفخ الله في آدم الروح فبلغ الروح رأسه عطس فقال: الحمد لله رب العالمين فقال له تبارك وتعالى: يرحمك الله".[٢]

نقرأ في البخاري الرواية الآتية: "خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً ثم قال لـــه: اذهـــب وســـلم على أولئك من الملائكة فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقـــال: السلامُ عليكم فقالوا السلام عليك ورحمة الله فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن".[٣]

وكما هو واضح في هذه الرواية فإن آدم ، لم يكن استمراراً لمخلوق آخر، بـــل كـــأول مخلوق، فعندما نفخت فيه الحياة عطس، وعندما عطس قال: "الحمد لله". إذن فـــلم يكن حتى ذلك الحين قد تنفس، ولم يكن قد تكلم بعد كلمة ولم

١. المسند ١٥٢/٣

٢. الهيثمي: موارد الظمآن ٥٠٨/١، صحيح ابن حبان، ٣٧/١٤، ٤١

٣. البخاري، الإستئذان ١، الأنبياء ١، مسلم، الجنة٢٨، الترمذي، تفسير القرآن ٩٤، المستدرك ١٣٢/١.

يكـــن قـــد خوطب من قبل أحد، و لم يكن هناك أي مخلوق إنساني بعد. أي أن الإنسانية بدأت بآدم ﷺ.

٦. قال رسول الله ﷺ: "يدخل أهل الجنة الجنة جُرْداً مُرْ داً بيضا مُكحلين أبناء ثلاث وثلاثين سنةً على خلق آدم ستون ذراعاً في عَرْضِ سبع أذرعٍ".[١]

الــــذراع هي المسافة بين أطراف أصابع الإنسان حتى مرفقه، وكان طول آدم ﷺ ستون ذراعاً، وبعرض سبع أذرع من ناحية المنكبين.

١. "المسند" ٢/٢٩٥، ٣٤٣، ٤١٥

الخلق كما ورد في الكتاب المقدس

ولنذكر هذا بشكل مختصر وبآيتين من باب التكوين في التوراة:

(خلـــق الله الرب آدم من تراب الأرض، ونفخ في أنفه نفحة الحياة فأصبح آدم مخلوقـــاً حـــياً).[١] ويتناول خلق حواء على وجه الأرض: (لم يكن حسناً بقاء آدم وحـــيداً، عليّ أن أصنع له معاوناً... وقام الإله الرب بوضع نوم عميق على آدم، فـــنام آدم فأخذ ضلعاً من أضلاعه وملأ مكانه لحماً، وصنع الرب من الضلع الذي أخذه حواء وجلبها لآدم).[٢]

أجـــل!... إن الكتاب المقدس، وجميع الكتب الإلهية تذكر ما ذكره القرآن من أن الإنســـان الأوّل خلق من قبل الله تعالى، ومن عناصر الأرض. ويؤمن بهذا جميع منتســـبي الأديـــان. أي لا يوجد هنا تطور بالمعنى الذي قصده دارون، و لم يأخذ الإنسان شكله الحالي عن طريق التطور.

١. الكتاب المقدس/التوراة: (التكوين ٢/٧)

٢. الكتاب المقدس/التوراة (التكوين٢، ١٨، ٢١-٢٢)

خلاصة القول

حاولنا خلال هذا الكتاب عرض الحقيقة الآتية:

مهمـــا تكـــلم بعـــض المحافل العلمية وبعض العلماء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ومهما أبدو من اهتمام ومهما ورد في بعض كتبهم أو في محاضراتهم فلا يوجد أي سند قوي ولا أي برهان أو حجة قوية في تاييد نظرية التطور. إذ لم يتم العـــثور على المتحجرات التي تربط الإنسان بالقرد. وتمت عمليات تزييف في بعض المـــتحجرات، كما جمعت متحجرات أخرى من أماكن مختلفة وأكملت فجواتها وأقسامها الناقصة بعمليات مونتاج. وعلم الجينات يرد مثل هذا الأمر.

إن تركيـــب جزيـــئات D.N.A وبنيتها تستوجب وجود علم وقدرة لانهائية وراءهـــا، ولا تـــبقي أي فرصة أو احتمال لتكونها نتيجة المصادفات أو أي تدخل خال من الشعور والإدراك. وجميع ما زعم أنها أدلة لا تعدو أن تكون فرضيات أو تـــأويلات بعـــيدة ومصطنعة. وقد ملئت جميع الفجوات الكبيرة الموجودة في هذه الـــنظرية بفرضيات خيالية. أما بعض المزاعم التي طرحت انطلاقاً من وجود بعض المشـــابهات فهـــي تقيـــيمات وتفسيرات أخذت بنية الكائنات الحية بنظر الاعتبار وأهملـــت وظائفها في الحياة. لذا فهذه التقييمات والتفسيرات لا ترتقى إلى مستوى البراهين.

والشـــيء الحيوي في هذا الموضوع أن ما تم تقديمه كأدلة في هذا الصدد، إنما تم مـــن قبل المؤمنين بهذه النظرية، لذا كان من الضروري فحص وتدقيق هذه المزاعم بأكمـــلها. فكما أن المصادفات لا تملك أي موقع مهما كان صغيراً في هذا العالم،

كذلك يستحيل قيام أي كائن حي بخلق نفسه بنفسه من العدم. والتجارب التي قام بها العالم الفرنسي باستور، وكذلك التجارب الأشمل التي تمت في هذا الصدد ردت ونقضت فكرة الظهور التلقائي للكائنات الحية. وحتى إن فرضنا المستحيل وظهرت فروق في كائن حي نتيجة بعض الشروط والظروف فهي لا تكون مستنداً أو سبباً للتحول إلى نوع آخر، كما لم يتم العثور على أي مثال على هذا. أي أن تلك الفروق كانت نتيجة سماح بنية وتركيب ذلك الحي لها.

وعلاوة على هذا فإن جميع الأديان السابقة، وجميع الأنبياء وجميع الكتب المقدسة تذكر بشكل واضح أن كل شيء -وضمنه الإنسان طبعاً- قد خلق من قبل الله تعالى. أي لا تفتح أي باب لقبول نظرية التطور.

إن هذه المسألة ليست من اختصاصي، وقد قمت فقط بشرح للخطوط العريضة والأساسية منها، وهي تحتاج إلى شرح تفصيلي أكثر. وأنا أضرع إلى الله تعالى مبدياً عجزي وفقري، وجاعلاً هذا العجز والفقر شفيعاً لي، وسائلاً المولى تعالى أن يوفق العلماء المختصين في هذا الموضوع لتناول هذا الموضوع بشروح أكثر تفصيلاً، ومن جميع جوانبه، لكي ينقذوا الأجيال من الانخداع بهذه النظرية التي تقدم على الدوام في سبيل إنكار الخالق. وأنا مطمئن بأنهم سينجحون في هذا. وأنا مقتنع بأنه قد آن الأوان لكي تؤلف الكتب التي تقول الحقيقة في هذا الموضوع، بدلاً من الكتب المؤلفة في الغرب من قبل الأوساط التي تؤمن بنظرية التطور.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس

[illegible]

١. النور الخالد محمد مفخرة الانسانية

٢. القدر في ضوء الكتاب والسنة

٣. أسئلة العصر المحيّرة

٤. روح الجهاد وحقيقته في الاسلام

٥. طرق الارشاد في الفكر والحياة

٦. أضواء قرآنية في سماء الوجدان

٧. الموازين او أضواء على الطريق

٨. ترانيم روح وأشجان قلب

٩. ونحن نقيم صرح الروح

١٠. حقيقة الخلق ونظرية التطور

تطلب الكتب اعلاه من شعبة دار النيل على العنوان الآتي:

العنوان: ٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر – القاهرة

تليفون وفاكس: ٠٠٢٠٢٢٦١٩٢٠٤

جمهورية مصر العربية

حقيقة الخلق ونظرية التطور

لقد خرجت نظرية التطور من كونها نظرية ـأو فرضيةـ علمية يمكن دراستها ووضعها على المحك مثل النظريات العلمية الأخرى، وأصبحت «أيدولوجية» عند علماء التطور يدافعون عنها حتى ولو تطلب الأمر القيام بعمليات تزوير مشينة.

ولكن لماذا أصبحت نظرية التطور أيدولوجية؟

لأنها النظرية العلمية الوحيدة التي يمكن ا
الإلحاد، لكونها تدعي القيام بتفسير الك
دون الحاجة الى الخالق. فإذا ظهر أن ك
أنواع الأحياء خلقت على حدة، وأن الح
نتيجة مصادفات عشوائية، لأن هذا أمر
وأن الأحياء لم تتطور عن بعضها البعض فلا يبقى هناك أي مجال أمام جميع العلماء سوى الإيمان بالله تعالى.